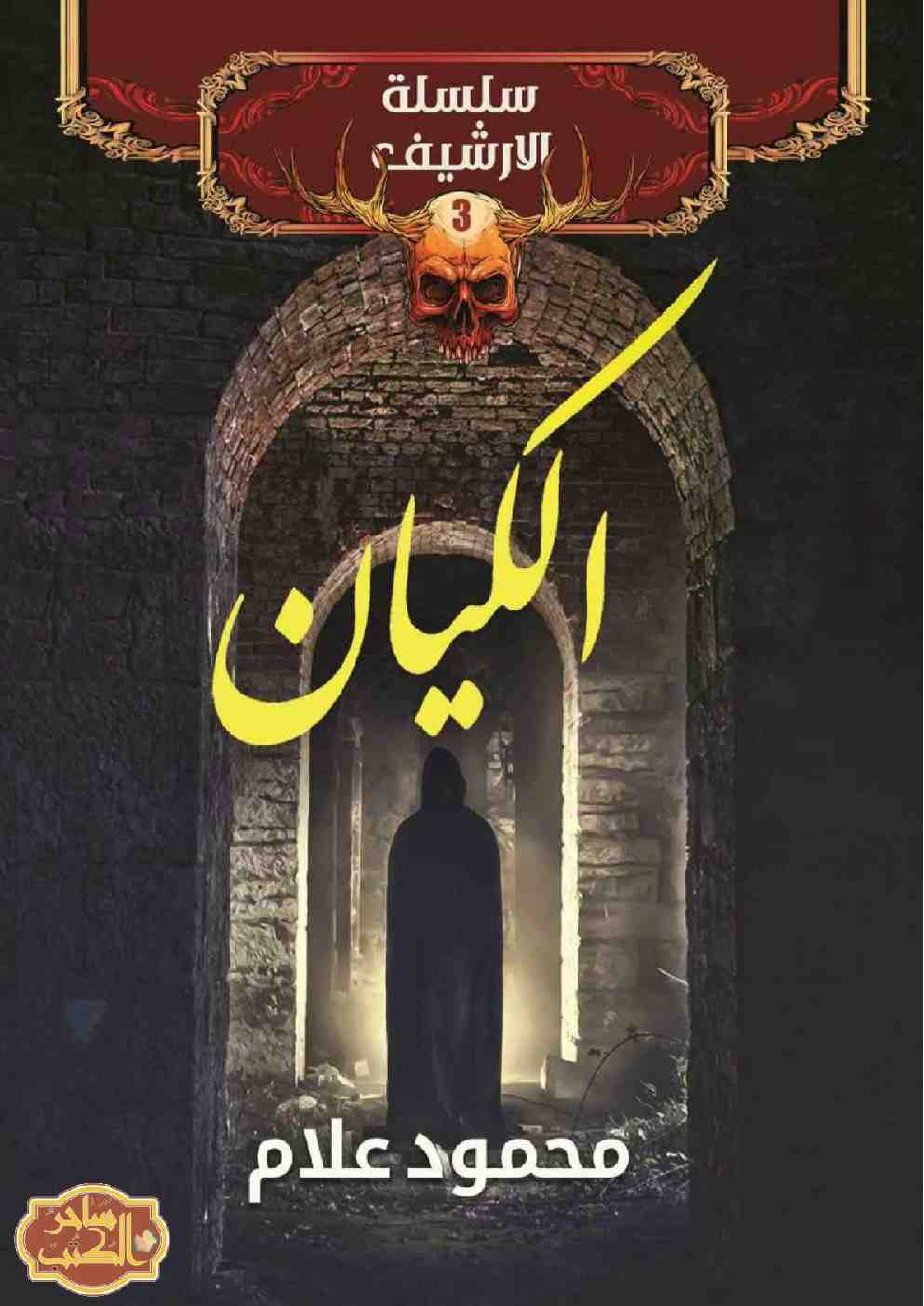
سلسلة الارشيف
3
الكيان
محمود علام
ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

مقدمة

صباح الخير إن كان صباحًا .

ومساء الخير إن كان مساءً .

معكم سالم منصور عبد الرحمن، الصحفي المغامر العاشق لعوالم ما وراء الطبيعية، والباحث المجد خلف الغموض وكل ما لا ينتمي لعالمنا، كاره القهوة، عاشق التبغ، البالغ من العمر ستين عاماً.

إن ما لدي من خبرات وقدرات لم تحيطوا بها علمًا، يمنحني بعض الثقة في أن ما سأقصه عليكم اليوم سينال رضاكم.

وأخبركم بسري الصغير، إن لدي أرشيف كامل يغص بكل ما مررت به من مغامرات، ومصائب، وأحداث غريبة، وغامضة، وخارقة، طوال حياتي، ومسيرتي الصحفية في هذا العالم، لم أترك شيئًا للذاكرة أو

للتخمين، كل شيء دونته أولا بأول، ودون زيادة أو نقصان في تلك الملفات التي تحتل نصف مكتبتي و..

لا تتسع أعينكم دهشة من هذه الملفات التي يتجاوز عددها الثلاثين، فمازال هناك مثلها أو يزيد في صندوق خاص موضوع بالعلية، غير ما لم أكتبه بعد، إن ما مررت به في حياتي أكثر مما تستوعبه عقولكم، ويستحق الاهتمام والتدوين.

لقد صنعت أرشيفي الخاص بداخل تلك الملفات.

المهم ما تحتويه هذه الملفات من قصص ومعلومات. بعضها مثير، وبعضها مخيف.

لقد حان الوقت لنخوض رحلتنا معا..

كوب من الشاي بالشيكولاتة ذو النكهة الأقرب إلى طعم مشروب الكاكاو القديم، التي بت أفتقدها في مشروبات هذه الأيام .

مقطوعة موسيقية حالمة لعمر خيرت..

مقعدي الهزاز المريح المزود بنظام حديث للمساج .

لنبدأ معاً قصة ملف: الكيان

مقدمة

هذا هو الظلام..

الظلام المتجسد في كل ركن.. ثقيل على روحك، تشعر به يثقل كاهلك كما الذنوب كليلٍ حالك كحيل، بلا قرار، ولا ضي..

لا يمكنك أن تستوعب ملامح المكان الذي تنظر إليه.. ربما لو ظلت عيناك تنظر إلى الداخل لبعض الوقت، لأمكنك التكيف نسبيًا، ورؤية حدود الموجودات بتلك الصبغة الرمادية المظلمة المميزة.. أنت تعرف أن عين الإنسان يمكنها التكيف على الرؤية الليلة إلى حد معين، لو تعرضت للظلام لفترة طويلة، وتأمل أن يكون هذا هو ما بصدد الحدوث هنا، وإلا كان هذا المشهد مملًا فعلًا..

وسريعًا، كأنما القدر يسمعك، ويسمع أمنياتك، يتحقق ما كنت ترنو إليه، ولكنما ليس كما تتوقع.. فالضوء ينتشر فجأة من ذلك المصباح في سقف الغرفة،

ويحيل أركانها ضيًا أبيضًا كقمرٍ فضي، في ليلة سوداء بلا شمس، وترتسم أمام عينيك المترقبتان تفاصيلها..

تلك الأرفف العديدة التي تحتل كل حائط في الغرفة الطويلة الأشبه بردهة الفنادق.. كل حائط يحوي مكتبة طويلة تحمل العديد من الأرفف المعدنية، التي تحمل بدورها عددًا لا نهائيًا من المجلدات الصفراء المتربة المغبرة.. عدد لا يمكنك حصره حرفيًا، لا يقل عن آلاف الآلاف.. حجم الغرفة كبير فعلًا ويستوعب ذلك الرقم..

ثم تسمع أذناك الخطوات، قبل أن ترى عيناك ذلك الذي يخطو بداخل الغرفة من الباب البعيد في الركن، يجذب خلفه ذلك الكرسي المعدني الصغير، فيصدر عنه صوت الإحتكاك المميز بأرضية الغرفة.. صوت لابد أنك تعرفه لو شاهدت أي فيلم رعب منذ فجر التاريخ..

كريييييييك..

يجذب الرجل الكرسي حتى منتصف الغرفة تمامًا، أسفل ذلك المصباح الذي يتدلى من السقف، ثم يتركه في مكانه، ويستدير ليجذب تلك المنضدة الخشبية الصغيرة من الركن، خلف أحد الأرفف.. كيف لم تلحظها من قبل؟.. الغرفة لا تحمل أي مخابيء، ولا يغيب أي ركن فيها عن ناظريك، فمن أين أتت المنضدة؟.. لا تفهم!

وليس هذا مهمًا الآن.. المهم هو ما يفعله ذلك الرجل الذي لا تتبين ملامحه جيدًا بسبب المصباح الذي فوق رأسه مباشرة، يلقي بظلاله على الأرض تحت قدميه، ويغرق ملامحه في ظلام نسبي، يزيده سوادًا ذلك الكاسكيت الصغير الذي يرتديه على رأسه، فلا تميز منه سوى شعره الرمادي الأشعث الثائر، الذي يطل من تحت الكاسكيت، ويشترك مع معطفه الأسود الطويل، وسرواله الرمادي في إعطائه صفة رسمية من نوعٍ ما..

من هذا بالضبط، وما هذا المكان الذي تنظر إليه؟!

يبدو منظره أشبه بأرشيف من نوعٍ ما.. ربما هو مخزن بأحد المصالح الحكومية، أو بمديرية الأمن، أو مبنى المباحث أو أمن الدولة.. أيٌ من تلك الأماكن البيروقراطية المقبضة، التي لا تتمنى أن تُتْرَك وحدك فيها ليلًا.. أنت تعرف ما أعنيه!

فهل هذا واحدٌ من هؤلاء؟

لو صح التساؤل، فإن هذا يعني أن الرجل ضابط، أو موظف حكومي من نوعٍ ما..

ولكنك لا تقدر على تقبل الإستنتاج وانت تتطلع إليه وهو يجلس على الكرسي، ويستند إلى المنضدة في صمت طال لوهلة قصيرة، ثم يدس يده في جيب المعطف ليخرج علبة السجائر، والقداحة..

يلتقط السيجارة البيضاء الطويلة من العلبة، ويمرر يده على مكبس القداحة لتتأجج الشعلة الصغيرة في فضاء الغرفة، ويلقمها السيجارة التي يشتعل طرفها وينطفيء تاركًا خيط الدخان المتصاعد، الذي يلقي

بظلاله على ما حوله، بفعل شعيعات النور التي تمر عبره، وخلاله..

المشهد يبدو أيقونيًا بشكلٍ ما، يثير توجسك لسبب لا تفهمه بالضبط، وأنت ترقب الرجل وهو ينفث الدخان، ويتصاعد من بين شفتيه، و وجهه غارق في الظلال، لا تتبين معه إن كان شابًا أم كهلًا، أم عجوزًا..

جسده فارع الطول مفرود القامة على أي حال، فلا تتوقع أنه عجوز.. العجائز لا يمشون مفرودي الظهور، ولا يجلسون بتلك الطريقة.. يمكنك أن تميز أي عجوز من جلسته المنحنية المميزة، التي لا ترتسم على ذلك الجالس ها هنا..

هو شاب.. أو كهلٌ إذًا.. هذا جيد.. يمكنك أن تتقبل هذا الإستنتاج..

ماذا أيضًا؟ هل هناك ما هو أكثر؟ لا تعتقد أنه سيظل جالسًا ليدخن السجائر طيلة اليوم.. بالتأكيد هو يملك شيئًا أفضل ليفعله..

هنا – كأنه يسمعك - نهض الرجل من مكانه، واستدار نحو الرف المقابل، وأخذ يبحث في عناوين الملفات بعض الوقت، حتى توقف مليًا وهو يقرأ عنوان أحد الملفات، ثم لم يلبث أن سحبه من مكانه، وجعل ينفض عنه التراب الذي تعالت سحابة منه لتغمر المشهد، قبل أن تنقشع عليه وهو يجلس إلى المنضدة مرة أخرى، ويضع الملف أمامه، والسيجار بين إصبعي كفه الآخر..

ثمة شيءٌ ما يمنعك من النظر إلى ملامح الرجل.. كأنما الطبيعة وقوانين الفيزياء اجتمعتا، وقررتا أن تقوما بإخراج المشهد خصيصًا لكي تجعلانك لا ترى ملامحه، ولا تستوضحها.. وهذا غريب..

ثم أن دخان السيجار الذي في يده كثير جدًا، يوشك على أن يكون سحابة فوق رأسك تغلف السقف بأكمله كأنما هذا حريق وليس سيجارًا صغيرًا! وهذا أغرب..

والغرفة.. الغرفة التي لا تحوي أي نوافذ أو شرفات، وليس لها أي أبواب من أي نوع.. حتى ذلك الباب الذي

دخل منه الرجل، لا يمكنك أن تراه أو ترى أين هو، أو لأين ذهب.. وهذا غريب جدًا..

دعك طبعًا من الأنسام التي تشعر بها تداعب ملابسك، وتحرك معطف الرجل بلمسات هفهافة، كأنما هو يجلس في منتصف الشارع، ولا تدري لها مصدرًا في غرفة بلا أي نوافذ من أي نوع.. وهذا غريب للغاية.. إنه الغرابة نفسها..

الرجل يفتح الملف الذي أمامه، ويقترب منه بعينيه اللتان لا تستوضحهما جيدًا، ويبدأ في قراءة ما هو مُدونٌ بداخله..

ما الذي يقرؤه بالضبط؟

الفضول يستولي عليك.. لا سبب هنالك يمنعك من أن تقترب، وتنظر من فوق كتفه لترى إلامَ يتطلع ويقرأ بهذا التركيز.. لابد أنه غريب كمثل غرابة كل ما يتعلق بالموقف الدائر..

فقط اقترب..

اقترب معي ولا تخف..

ما الذي يمكن أن يحدث على أيةِ حال؟

الرجل يبدو مسالمًا ولن يعض بالتأكيد.. ثم إن الفضول الذي بداخلك أقوى من أي شيء.. أن تعرف ما يقولونه دائمًا عن فضول القط الذي قتله وما إلى ذلك، فلن أصدع رأسك بالمزيد من الكلام عن القبور التي تعج بالذين عرفوا أكثر مما ينبغي وكل تلك الأشياء، فلابد أنك حفظته كاسمك.. أنت ذكي إلى درجة كبيرة، وتعرف بالتأكيد ما أتحدث عنه.. ثم إنك ناضجٌ ومسئول عن أفعالك بصفة كاملة.. لن أمسك بيدك كما الأطفال، أو أخبرك بما يجب عمله..

فقط تطلع معي..

تطلع إلى عنوان الملف الذي أمامك، وإلى الإهتمام الذي يتصفحه به ذلك الغامض الجالس أمامك، وحاول أن تفهم عمّا يدور الموضوع بالضبط؛ فجزءٌ منك يشعر بأن شيئًا ما يختفي خلف كل هذا، وأن سبيل خروجك

من هنا يعتمد عليه.. الغرفة لا تحوي أبوابًا كما لابد أنك لاحظت.. فلا شيء آخر يمكن أن تفعله غير ذاك..

تعال..

تعال وقِف بجواري، ولا تدعه يراك أو يشعر بوجودك.. ركز معي بداخل الملف، وحاول أن تقرأ الحروف الذائبة المغبرة؛ فثمة قصة غامضة تتشكل بداخلها وتنتظر..

قصة قد يتوقف عليها مصيرك..

* * *

تمهيد

الساعات الوسطى من الليل..

صوت السكون ذاته..

الصمت.. لو كان يملك صوتًا، فلابد أن ذاك هو..

النسيم الممتزج بصوت تلك الكائنات الصغيرة التي لا تراها، ولا تعرف ما هي، ولكنها هناك.. تقبع في الأعشاب بين الظلام، وتنتظر..

رائحة النيل الغريبة التي لم تعد كما كانت، وشكله الذي تنعكس عليه شعيعات القمر الفضية الرقيقة، فتبدو كرداء مخملي يغلف تموجاته الخافتة، تسبح عبرها الغصون وأوراق الشجر الميتة، والطحالب، كأن لها حياة خاصة، لا تبوح بسرها لأحد..

رائحة الليل ذاته..

الظلام الذي يستحي من أن يطلق على نفسه صفة الظلمة.. أنت تعرف تلك اللمسة التي يتركها فيك مشهد النيل والليل، ولكنك لا تعرف كيف تصفها.. هذا هو ما يعنيه المشهد، ويشدو به في مخيلة الأذهان..

النادل المتأنق.. يحمل تلك الصحفة الفضية المذهبة، تلتمع عليها أنوار ذلك المطعم الراقي، بينما هو يمر بين المناضيد الخالية، صوب ذلك الجالس بمفرده، يتطلع إلى أفق النيل شاردًا..

يضع ما بجعبته على المنضدة الأنيقة.. الكأس الطويل الذي يحوي سائلًا رائقًا يميل للإصفرار.. ربما كان خمرًا أو عصير تفاح.. ليس هذا موضوعنا، برغم انك لو خمنت لسمحت لنفسك أن تعتقد أنه الأخير.. لا يبدو ذلك الجالس سكيرًا، أو من النوع الذي يشرب.. هؤلاء لهم ملامح مميزة لا يحويها وجهه الشارد.. لحيته القصيرة المنمقة، التي تمتزج بشاربه وشعر رأسه الطويل المصفف إلى الجانب بعناية تمتزجان ليشكلان معًا قصة لا تبوح بها شفتاه..

يشكر النادل بلباقة، ثم يلتقط الكأس في راحته.. يمسك بساقه بين إصبعيه، ويرفعه إلى شفتيه ليرشف منه رشفه قصيرة، يستطيب طعمها ويستلذه؛ فيطلب منه مزيدًا..

رشفات أخرى، ثم يعيده إلى مكانه، وينظر إلى ساعته وهو يزفر زفرة حارة.. قد تأخرت، وربما لن تأتي.. لربما هو يضيع وقته الذي لا يملك منه الكثير.. سينتظر عشر دقائق أخرى ثم ينصرف..

تراجع في مقعده الوثير قليلًا، واستند بظهره إليه وهو يمط عضلات كتفه، ويدير وجهه في المكان..

وعندها، رآها..

تمر بين المناضيد صوبه، تعلو أنفها تلك النظارة الطبية المستديرة ذات الإطار المُذهب.. ترتدي قميصًا أزرق اللون حالكه، وتشمر كمه إلى الربع تقريبًا، ليتبدى منه ساعدها الأبيض البض، وكفاها الرقيقان.. ترتدي حجابًا محكم الغلق على وجهها، فلا تتبدى من رأسها شعرة،

وسروالًا ضيقًا من الجينز الفاتح يظهر قوامها الجميل، وعودها الفاتن.. كزهرة حمراء تتمايل مع الأنسام، وتتفادي المقاعد وهي تسرى صوبه، كأنما هي تسير على الهواء، فلا تحرك ذراته..

نهض من مكانه وهو يغلق زر معطفه الرمادي الأنيق متطلعًا إليها، وإلى بسمتها الراقية، قبل أن يلتقط أصابعها الطويلة الرفيعة بين راحته في سلامٍ لم يطل.. كفها رقيقة، وأصابعها باردة هشة، تشي بروحٍ قلقة لا تنام..

- آسفة على التأخير الطويل.. الطريق كان مزدحمًا بعض الشيء..

أشار بكفه إلى المقعد المقابل في أريحية، وهو يقول:

- ولا يهمك.. المهمُ أنكِ بخير..

أهدته نفس البسمة الهادئة، ثم جلست في بساطة، ووضعت حقيبتها أمامها على المنضدة، بينما أشار هو بكفه للنادل أن تعال..

- ماذا تشربين؟

- قهوة فرنساوي..

نظر للنادل نظرة ذات معني، بينما هي تضيف:

- مظبوط..

أومأ النادل برأسه علامة الإيجاب، ثم انحنى واضعًا كفيه خلف ظهره وهو ينصرف بأناقة ليحضر ما طلبته..

أدارت هي عيناها إليه وهو يجلس أمامها في صمت، فتنحنح هو في مكانه، ثم قال:

- كيف حالك؟

ردت في بساطة محببة:

- الحمد لله.. أكرر لك اعتذاري.. أعرف أني قد أعطيتك ميعادًا منذ الساعة العاشرة، ولكني لم أكن أعرف أو أتوقع أن يكون الطريق مزدحمًا بذاك الشكل..

ابتسم وهو يعبث في إطار ساعته لا شعوريًا..

- لا تلقين بالًا لكل هذا؛ فلا شيء يستأهل الاعتذار..

ساد الصمت لبرهة، ثم تنحنح هو من جديد محاولًا أن يجذب أطراف الحديث:

- هل سيكون لديك مشكلة إذا تأخرتي لكل هذا الوقت خارج المنزل؟ الساعة الحادية عشر ونصف تقريبًا..

أدارت عينيها إلى النيل الساكن في ظلمة الليل لحظة، ثم ردت في شرود:

- لا مشكلة هناك.. لن يشكل الأمر فارقًا على أي حال..

مال بجسده على المنضدة، وشبك أصابع كفيه تحت ذقنه، وهو يقول:

- إذًا ابدأي الحكي.. لدي فضولٌ لمعرفة القصة..

أدارت عينيها له وهي تقول:

- التفاصيل شديدة التشابك.. لا أعرف من أين أبدأ..

قال وهو يبتسم ابتسامة خافتة، عاقدًا أصابعه بنفس الكيفية:

- تشابكها لا يهم.. أنا متأكد من أنكِ تملكين الكثير، وتخفين ما هو أكثر، ولن يريحك الأمر في البداية.. لكن..

جاء النادل في هذه اللحظة حاملًا صحفته الأنيقة، وعليها فنجان القهوة الصغير.. نقله إلى أمامها، وسألها عن طلبات أخرى.. نفت، فأومأ برأسه بلباقة وهو يستدير منصرفًا..

التقطت هي فنجان القهوة، لترشف منه رشفة بسيطة، بينما هو يتابع:

- أهم ما في الأمر هو أن تبدأي من البداية.. تفصيلًا.. ربما استطعت أن أساعدك، أو أفهم ما تمرين به على الأقل..

وضعت الفنجان في مكانه مرة أخرى، وهي تقول:

- لا أعتقد أنك ستقدر على المساعدة، ولكن رأيك سيكون مفيدًا بالنسبةِ إليّ.. بعدما قرأت تلك القصة التي عرضتها في كتاب الشمس، أجسر على أن أقول أنك تفهم ما تتحدث عنه.. حتى لو كان هناك جزءًا فيه من خيالك، ولكن أنا متأكدة أنه على الأقل معظم التفاصيل التي ذكرتها فيه لا يمكن أن تكون خيالًا..

صمت تمامًا وتعلقت عيناه بها وهي تتابع:

- لا أحد يمكن أن يفهم هذه الأشياء، أو يعرف تلك التفاصيل، سوى من عاشها فعلًا أو رآها تحدث أمام عينيه.. من جربوا فعلًا يجدون بعضهم، ولو كان ذاك وسط آلاف الكذابين المزورين..

تراجع في جلسته ليستند بظهره على المقعد، وعقد ذراعيه على صدره هو يقول:

- قد سعدت بكلماتك، وباقتناعك و إيمانك بما قرأتيه.. فرصة أن أقابل شخصًا يفهم تلك التفاصيل، ويوقن

أنها حقيقية ليست كبيرة فعلًا، ولا تتكرر كثيرًا.. العديدون يقرأون ما هو مكتوب، ويستمتعون به باعتباره خيالًا، ثم ينسون كل شيء مع أول لحظة يلقون فيها بالكتاب في أي ركن.."

قالت بعد ضحكة قصيرة رقيقة:

- ليس أنا.. أنا لا أنسى.. التفاصيل بالنسبةِ إليّ هي أهم ما في أي حكاية، وأي قصة.. هي التى أعرف بواسطتها إن كان من أمامي صادقٌ أم كاذب، وما هو هدفه بالضبط.. وفي حالتك - وبرغم أنه كانت هناك تفاصيل كثيرة من خيالك - لكن الباقي كان كله يحمل تلك اللمسة الحقيقية المُقبضة.. تلك اللمسة تغدو ثقيلة كالكابوس على نفس من جرب فعلًا، ولا يجتازها بسهولة.. على العكس من ذاك الذي يطالع القصة بهدف التسلية وليس أكثر.. وربما كان ذاك هو السبب الذي جعلني أعرض عليك أنت بالذات حكايتي..

مد يده للكأس وسط حديثها، وروى حلقه ببعض الرشفات، ثم قال وهو يعيده لمكانه:

- وأنا مهتمٌ بالأمر فعليًا.. يمكنك أن تعتبريني أذنًا كبيرة، لا تنصت لسواكِ..

افترّت زاوية فمها عن بسمة هادئة، ويممت وجهها شطر النيل لحظات، تعلقت عيناها فيها بتموجاته الخلابة، وصوت الخرير الخافت، وسط انعكاس الأشعة الفضية من سطح الماء الرائق على عدسة نظارتها الأنيقة، ثم قالت وهي تعتدل في جلستها:

- لكن وجب أن أحذرك.. ما سأحكيه لك، هو غير أي شيء يمكن أن تكون قد سمعت عنه من قبل.. وربما غيرك نظرتك إلى تلك الأمور، وزرع فيك رهبةً وتوجسًا مني أو من غيري.. وفي كل تلك الحالات، أنت المسئول..

أغمض عينيه وفتحهما علامة الموافقة، وعلى وجهه نفس الابتسامة الهادئة، فأضافت:

- نقطة أخرى مهمة.. اسمي ليس (ندى).. وحساب فيس بوك الذي راسلتك منه ليس حسابي.. قد أنشأته

خصيصًا حتى يتسنى لي أن أتواصل معك.. لا أحبذ أن أقول اسمي الحقيقي، ولا أحبذ أن يعرف أي أحدٍ أن التفاصيل التي أنا على وشك أن أحكيها لك هي خاصة بي أنا.. يمكنك أن تتعامل مع الأمر على أنها قصة عشوائية من مجهول، ولن أمتلك أي مشكلة مع ذاك..

- مفهوم.. اسمُكِ ليس ندى، وحساب فيس بوك الذي قمتِ بمراسلتي من عليه مزيف.. Fair Enough..

ارتشفت رشفة أخرى من فنجان القهوة وهي تلتقط نفسًا عميقًا، ثم تراجعت في مقعدها لتريح ظهرها على المسند..

وبدأت الحكي..

* * *

- 1 -

خيالات

قبل أن نبدأ، دعني أحكي لك عن الظروف التي تبدأ فيها حكايتي بعض الشيء.. هذا مهمٌ كما تعلم لو أردت أن تضع نفسك في الجو كما يقولون، وهو مهمٌ بالنسبة لي أيضًا حتى أستطيع أن أستجمع أفكاري المشتتة..

سني وقتها كان حوالي ثماني سنين.. كنت طفلة لم أفقه شيئًا عن الحياة بعد، لا تحوي أفكاري سوى صديقاتي وبنات الجيران، والحلوى، واللعب.. اللعب حتى تنقطع أنفاسنا.. كنت لتندهش لو رأيت الطاقة التي كنت أمتلكها وقتها.. كأنني لا أحتاج للأكسجين حتى يتمكن جسدي الصغير من العمل..

حينها، كنا نسكن في ضاحية صغيرة من ضواحي الهرم.. قبل أن يصبح المكان شديد الإزدحام الأشبه بشوارع هونج كونج الذي تراه في الوقت الحالي، كان

الهرم يومًا ما جميلًا، وكانت الأنسام - صدق أو لا تصدق - تمر خلاله محركةً الأشجار بقوة، لتغمر المارة بشعور منعش.. قبل أن يضحي حيًا لا مكان لقدمٍ فيه..

هذا طبيعي على أي حال، فلو قارنت تعداد سكان مصر وقتها بتعداد السكان الحالي، سيمكنك أن تتفهم الأمر بالتأكيد..

المهم..

وقتها كنا عائلة متقاربة، وكانت العلاقات الأسرية والعائلية وطيدة نوعًا.. أذكر أنه في وقتٍ ما وفترةٍ ما من فترات حياتنا، كنا نسهر في بيت واحدة من خالاتي يوميًا، وكانت تلك الخالة تتغير كل مرة، إلا خالة واحدة، لم نكن نزرها كثيرًا لسببٍ مهم ستعرفه حالًا..

لكن المشهد الذي تبدأ فيه الحكاية ها هنا، لم يكن بيت إحدى خالاتي، بل هو بيتنا نحن.. كانت خالتي (عصمت) تزورنا وقتها، هي وابنتاها الاثنتان (وئام)

و(شروق).. ومعها كانت جدتي وخالي (عبد العزيز)، و (مريم) ابنة خال آخر..

(وئام) كانت تصغرني بعام، أما (شروق) فكانت تكبرني بحوالي أحد عشر عامًا؛ لذلك فيمكنك أن تخمن هوية من كنت ألهو معها وقتها.. أنت ذكي وأثق في قدرتك على الاستنتاج..

خالتي (عصمت) هي من نوع السيدات التي تتمنى أن لا تقابلها أبدًا في زقاقٍ مظلم..بدينة كأفراس النهر، قوية الشخصية كالقدر، لا يهزها شيء.. يمكنها أن تقتل رجلًا لو نظر لها فقط بطريقة خاطئة.. ولكنها لم تكن قاسية أو (مفترية) كما يقولون، بل على النقيض تمامًا، كانت عادلة، وكان قلبها طيبًا جدًا.. الطيبة لا تتعارض مع الشراسة كما تعلم، فيمكنك أن تكون طيبًا وديعًا كالقطط، وشرسًا كالنمور لو أردت في أي وقت.. أنظر إلى (فريد شوقي) في الأفلام القديمة وستفهم ما أعنيه..

(عصمت) كانت هي أشرس خالاتي، ولم تكن إحداهن لتجرؤ على أن تتحدث إليها بطريقة غير لائقة، أو أن تُقلل من قيمتها.. وكانت هي المتصدرة في معظم المشاكل العائلية؛ لأن أحدًا لم يكن ليجرؤ على أن يعصى لها أمرًا أو كلمة، بالرغم من أنها لم تكن الكبرى.. لديها ثلاثة أولاد وبنتان لا يهمنا فيهم سوى الإناث لأن لهُنّ دورًا لا بأس به..

أما خالي (عبدالعزيز) فكان رجلًا من النوع الطاووسي، المهتم بمظهره لحد الهوس.. أنت تعرف هؤلاء المعتدين بأنفسهم الذين تجدهم في كل مكان، يبرمون شواربهم وهم ينفخون أوداجهم في فخر.. كذا هو بدون الشارب الأيقوني.. شعره فضي يميل إلى البياض النسبي، كثيف بعض الشيء وناعم.. ليس طويلًا جدًا، ولا يميل إلى القصر، بل هو متوسط القامة.. يذكرك بـ (عزت أبى عوف) لو كان الأخير يشبه (حسن حسني) ويملك كرشًا صغيرًا لا تلحظه..

كان يحب السيدات ككل الرجال، وربما أكثر قليلًا.. ولكنك استنتجت هذا بالتأكيد حينما قلت لك أنه

شديد الإهتمام بمظهره.. بالتأكيد هو لا يهتم بنفسه حتى يتسنى له النظر في المرآة والبكاء حد تحطيمها، ليموت حسرة.. هو ليس (نارسيس) بالتأكيد.. ضع أي متسول كريه الرائحة في غرفة واحدة مع فتاة جميلة، وستجده يتحول لـ (جوني ديب) بعد خمس دقائق..

من هو (نارسيس)؟ كنت أظنك أكثر ثقافة من هذا.. (نارسيس) في الأساطير الإغريقية هو ذلك الصياد الذي هام بوجهه حبًا حينما رآه في انعكاس المياه، حتى حاول أن يلمسه يومًا ما ليتشتت ويتموج، فمات حسرةً بعد فترة، لتنبت في موضعه زهور النرجس..

نعم، هذا هو أصل كلمة نرجسية Narcissism .. لن أعلمك هذه أيضًا.. ركز معي من فضلك..

كانت له ابنة واحدة، وولدان، هم (نادية) و(سمير) و(محمد).. إلا أنهم لم يكونوا معه وقتها.. كانت جدتي هي التي قَدِمَت معه، هي و(مريم)..

جدتي هي من أطيب المخلوقات التي سارت على الأرض في رأيي.. كنت أهيم بها حبًا، لكونها كانت تدللني كطبيعة الجدات، ولكونها ذات وجه طفولي لعوب تحب النظر إليه، يذكرك بمقدمات برامج الأطفال المرحات.. تسكُن وحدها بعد وفاة جدي، ورفضها الإنتقال لبيت أحد أولادها الثلاثة أو بناتها الأربع.. لديها وسواس قوي بالسحر والجن والتحضير والأسياد وكل هذه الأشياء، وتؤمن بأن أحدًا وضع لها عملًا تحت كل حجر وخلف كل جدار.. تشك في أي أحد وكل شخص، ولولا أنها تأمن أصابع كفها وتأنس شكلها، لحرقتها منذ زمن..

يؤنس وحدتها في بيتها (مريم) سالفة الذكر، ابنة خالي (محسن) التي لم تكن تعيش في بيت أهلها لسبب لا يهمنا كثيرًا.. وكانت تلك الأخيرة ترافقها في كل مكان، وتعتني بها وتحبها حبًا جمًا..

ذاك كان التجمع الذي كان في بيتنا وقتها باختصارٍ شديد، مُضافًا إليه ضيفٌ غريب الشكل والمظهر والحضور، سنعرفه حالًا..

أقول.. كنت وقتها في مدخل البناية، ألهو مع (وئام) وابنة إحدى جاراتنا.. لا أذكر ما كنا نفعله بالضبط، لكنه لم يكن يتضمن عنفًا أو طاقة بدنية كبيرة كعادة لهو الفتيات الرقيقة.. نذكرك في مرحنا بأميرات ديزني الأسطوريات الهفهافات، نهز شعورنا الطويلة عبر الهواء في شمم، ويتسابق الكل على نيل ضحكاتنا.. فلنترك الشجار بالسيوف البلاسيكية ومسدسات الخرز للأولاد البلهاء.. أرقى من هذا نحن معشر الفتيات، وأكثر نضجًا بما لا يقاس..

كان اللهو يستغرقنا، فلم نشعر بالوقت في غماره، حتى جاءت (شروق) وأخذت (وئام) إلى شقتنا لسبب لم أفهمه، ولم يكن يهمني كثيرًا.. فليذهب الكل للجحيم مادامت إحداهنّ هناك لألهو معها.. تلك الطفولة البريئة التي كان مرور الوقتِ فيها يقترن بالإمتاع فعلًا بلا تكلف..

ولكن زمنًا لم يكد يمضي، حتى جاءت (شروق) مرة أخرى، لتناديني في خفوت..

- بسسسسست.. (ندى)..

نظرت لها في تساؤل، فأشارت بكفها وأصابعها أن تعالي.. أدرت عيني لجارتي الصغيرة، ثم لها من جديد..

- سأنتهي من اللعب وأصعد..

- هُم يريدونك الآن..

زفرة تأفف، ثم توجهت صوبها لتقبض بيدها على كفي الصغيرة، وتقتادني عبر درجات السلم صاعدةً إلى شقتنا.. كان الباب مواربًا، يخرج منه ضباب غريب الشكل، أو ربما كان دخانًا..

كان دخانًا بالتأكيد، لأن رائحته كان عطرية ثقيلة لم أشُم مثلها في حياتي.. تذكرك بمشاهدٍ ما لا تدري متى مررت بها، وأين، وتجثم على أنفاسك ككابوس لا فكاك منه..

دلفت إلى الداخل، وخلعت حذائي حتى لا تُجَن والدتي، ثم اتجهت إلى غرفتها هي وأبي.. كانوا جميعًا يجلسون بالداخل، ولأن شقتنا لم تكُن واسعة، كانت خالتي وأمي وجدتي جالساتٍ في الممر الذي يقود للغرفة.. نظرنَّ لي جميعًا وأنا أمُر بدون أن تتحرك إحداهُنّ، ثم اقتادتني (شروق) إلى الداخل، حيث يجلس أبي وخالي (عبدالعزيز) على الأرض.. أمامه..

من هو ؟ سؤال مهم، ومحوري..

هو؛ كان شيخًا.. ضخم الجثة يلبس سروالًا من الجينز الفاتح، وقميصًا مشجرًا، ولا يبدو مظهره كما يبدو الشيوخ الطبيعيين ذوي الجلابيب البيضاء، والمسابح.. له لحية نامية رمادية لا يعني بها، وشعر رأسه قصير، وغير مصفف جيدًا.. شيءٌ ما في نظرة عينيه لي لم يكن مريحًا، ولكن حضوره ذاته لم يكن ثقيلًا.. مرآه يغمرك بشعورٍ لا تفهمه.. كأنك رأيته منذ زمنٍ بعيد، في مكانٍ ما لا تتذكره بالضبط.. أمامه طبق خزفي عميق، تجلس أمامه (وئام) وتنظر داخله بتركيز شديد، وعروق صدغها الصغير توشك على أن تنفجر..

لم أفهم ما أراه بالضبط، ولكن رهبة المشهد، وتأثيره المقبض كانا كافيين لينحفرا بداخل ذاكرتي حتى اليوم، كأنني شهدته البارحة..

منظر الدخان في الهواء، الخارج من ذلك البخور السميك المعلق في خصاص النافذة، ورائحته الثقيلة التي لا تتحملها..

النظرة في عيني والدي وخالي، وهما يتطلعان إليّ في ترقب، ومشهد عروق صدغ (وئام) الظاهرة بوضوح كالخطوط، كأنما رسمتها يد خطاط بارع، كجروح سكين، في لوحة تُظهِر كابوسًا ظلاميًا، لا ينتمي لحقيقةٍ ما..

صوت الشيخ الرنان، قوي النبرات وهو يقول رافعًا كفه نحوي علامة الاقتراب:

- تعالي.. تعالي يا (ندى)..

مبهورةً لا أتنفس، كأنما نسيت أن الهواء يحيطني، تتحرك عضلات ساقي وحدها بلا ملكةً مني، ولا

تحكم، في اقترابٍ حثيث، يشوبه حذر لا يُفقه..

يتلقفني بين ذراعيه، ويمسح على شعري وجبيني.. يغمغم بعباراتٍ ما لا أفهمها أو أذكرها، ثم ينظر في عيني مباشرةً..

- خائفةٌ مني؟

رأسي تهتز نفيًا بلا تفكير، منافية لما ينبغي أن يشعر به من في موقفي.. فيبتسم، ثم يمسح على جبيني مرةً أخرى..

- نجمك خفيف، وستستطيعين المساعدة!

يشير لـ (وئام) بسبابته..

- انهضي أنتِ يا حبيبتي.. اتركيها لتجرب..

(وئام) تنظر لي في تساؤل، ثم تنهض وتبتعد لتجلس في حجر خالي (عبدالعزيز)..

- اجلسي.. اجلسي هنا أمام الطبق يا (ندى)..

أجلس بلا تفكير.. كأن جسدي ينفذ ما يقول بدون أن يعطي فرصة لعقلي أن يتحكم في ما يفعله..

ثم أنه يلتقط وشاحًا هفهافًا أسود اللون من جواره، ويعدل من وضعه وهم يغمغم بآياتٍ من القرآن في صوتٍ رخيم لا تهتز نبراته، ولا تشوبها ريح التردد، بينما إصبعه السبابة يشير صوبي، ويمتزج الوسطى بإبهامه في طقطقةٍ لا معنى لها.. ثمة مواء قطة يأتي من اللامكان، ويطرق أذني حتى لأسمعه بوضوح، ولكن أثر صوته لا يرتسم على ملامحهم، كأنما لا يفقهون وجوده..

ثم يرفع عينيه نحوي، ويقول بنفس بسمته الهادئة:

- انظري إلى داخل الطبق..

فنظرت.. كتابة غريبة متلاصقة ومزخرفة، أشبه بشخبطات لا معنى لها.. لا تستوعب أنها حروف فعلية إلا لو دققت النظر بتركيزٍ شديد.. مرسومة بشكلٍ دائري في قاع الطبق، بلا بروزات.. شكلها يذكرك

بالطريقة التي يكتب بها الخطاطون الآيات القرآنية والأحاديث، أو صلواتهم على النبي.. ولكن شكلها لم يكن مريحًا كأولئك..

- ماذا ترين؟

أدقق في ما أراهُ وهلة، ثم تتحرك شفتاي:

- نخبشات غير مفهومة، ولا معنى لها..

- جيد..

أرفع عيني له في ترقب، لأتطلع له وهو يقترب في جلوسه مني رافعًا الوشاح الداكن..

- ما سأفعله الآن هو أن أغطيكي أنتِ والطبق بهذا الخمار.. أريد منك أن تخبريني بكل ما سترينه بالتفصيل.. اتفقنا؟

ما هو الذي سأراه ؟.. لا أفهم..

- وما هو هذا الذي سأراه؟

صوته الرنان يأتي من خلف عتمة الوشاح:

- انظري وركزي، وستعرفين حالًا..

ثم يتعالى صوته بآيات القرآن مجددًا، بنفس النبرات الرخيمة، يتخللها تلك الغمغمات الغير واضحة.. ما زلت لا أفهم، ولا أستوعب ما يتوقع أن أراه، ولكن شيئًا ما في داخلي يدفعني لأن أركز.. أركز كما لم أفعل من قبل..

ثم أدقق النظر بداخل الطبق..

***

- بحق لا إله إلا الله.. الحي القيوم، الواحد الجبار.. الرحيمُ الرحمن..

الصوت الجنائزي الرنان.. يدوي، ويمتزج بصداه المنعكس عن الحوائط، فيحتل ذهنك كاملًا.. لا مجال للتفكير في شيءٍ آخر..

يشير لي بسبابته، ويمسح على جبيني بحركة دائرية، تتخللها بعض التوقفات حينًا وآخر..

- بحق الله الذي لا إله إلا هو.. الواحد القهار.. الملكُ السلام.. العزيزُ العليم..

التوتر الذي يتصاعد في الجو.. يتصاعد معه شعورك بالبرودة التي تسرى على فقرات ظهرك، كأن وجودًا آخرًا يتمثل معك، ولا تدركه.. لا يفقه وجوده عقل، ولا يستوعب..

شعور غير مريح.. كأن شيئًا ما يرقبك من حيث لا تدري، ولا ينتوي بك خيرًا.. لا يشعر به غيرك، ولا يبالي هو بسواك.. كأنه ينتظرك أنت بالذات.. جاء من أجلك، وهو ليس على وشك الرحيل..

- بحق الله الواحدُ الأحد.. لو كان هناك سحرٌ أو تعزيمة.. عمل أو تعويذة.. أرِها مكانه و..

ثم إن صوته ينقطع.. يبدو عليه جهدٌ عميق يتمثل في ملامح وجهه.. كأنما هو يجاهد لأن يلتقط أنفاسه، ولا

يتحرك أو يغير من وضعية جلوسه..

ثم صوت الصفعة الذي يدوي، ووجهه الذي يستدير كأنما لطمه أحدهم بقبضة عاتية.. خيطٌ محمر يرتسم على وجنته، وقطرة دماء تتجمع في جانب فمه، ولا يتحرك أو يبالي.. منظر من يحيطونه المتوجس.. الآن أدركوا أن الأمر ليس مزاحًا، وأن ما يجري أمامهم لا تفسير له..

- أرها مكانه.. بحق الجبار القهار اركع..

ثم أن مشهد الحبر المرتسم بداخل الطبق يتغير.. كأنما هو يُعرض على شاشة تلفاز.. جسدي ينتفض معه، وينتابه شعور بالغثيان، كأنما أطير مرتفعةً للأعلى، ثم أهبط بسرعة كالسقوط.. سقوط بلا قرار.. شعيرات رأسي ذاتها تنتصب، وتمتزج بانتفاض جسدي وأنا أرقب المشهد الذي يتمثل أمامي..

- ماذا ترين؟..

لا أفقه بعد، ولا أستوعب.. المشهد مازال يرتسم، ويتضح أمام نظراتي المترقبة..

- (ندى).. إلامَ تنظرين؟

الرهبة.. الرهبة، ومنظر الحبر المتحرك ليرسم مشهدًا واضحًا لردهةٍ ما.. لا أميزها بعد، ولكنها تتضح أكثر..

- مدخل شقة خالتي (عصمت).. أرى الباب أمامي الآن..

صمت يسود لوهلة.. كأنما أحدهم لا يصدق أن الأمر حقيقي فعلًا.. أنه يعمل.. ثم يمزق صوته الرنان سكون المشهد:

- هل ترين العمل أمامك الآن؟

لم أفهم.. ماذا يعني؟..

- العمل؟

يلتقط نفسًا عميقًا، ثم يرد في صبر:

- هناك أشياء مضيئة بإضاءة ساطعة أمامك الآن.. ستجدينها واضحة، ولن تستطيعي النظر إليها مباشرة..

أراها بالفعل.. هو محق.. أرى أحدها هناك جوار إطار الباب.. نوره يأتي ساطعًا، ويغطي على الضياء الخارج من خلف باب الشقة الموارب..

- نعم.. نعم أراه.. هناك واحد جوار باب الشقة بالضبط..

صمتٌ، وشهقة عدم تصديق تأتي من خلف الوشاح، ثم صوته يأتي من جديد:

- حسنًا.. أكملي.. افتحي باب الشقة، وادلفي إلى الداخل..

ما الذي يقصده؟.. أنا أرقب المشهد فقط، ولست هناك فعلًا !.. أم هل يمكن..

جربت فعلًا أن أحرك جسدي وأخطو، فأطاعني ببساطة !.. كأنني أمشي في ردهة بيتنا بلا مشقة.. ولكن كل ما أراه حولي، وكل ما يحيطني هو أشبه برسومات خُطَّت بقلمٍ من الحبرِ الأسود الثقيل.. لا ألوان هناك ولا مشاهد طبيعية، بل كأنني أمشي بداخل صفحات كتاب مرسوم.. كل شيء هو إما أبيض أو أسود.. حتى الضوء ذاته..

أخطو، وأدفع قدميّ إلى الأمام حثيثًا، وأدفع الباب لأدخل..

تلك المرآة الكبيرة التي تملكها خالتي، معلقة على الحائط أمام باب الشقة مباشرة، جهة اليمين.. وذلك الضوء الساطع رمادي اللون الخارج منها.. أدقق النظر فيه، فيعميني لحظيًا ولكنني لا أتوقف..

أقترب أكثر، وأخترق بنظرتي حاجز السطوع.. شيءٌ ما هنا.. حجمه صغير، وشكله أشبه بثمرة فراولة دقيقة..

- هناك شيءٌ آخر أيضًا، في المرآة التي أمام الباب..

همسات وكلامٌ كثير لا أسمعه، ولا أميز منه سوى بعض اللفظات..

- خلف المرآة؟!

- كيف وضعوه هناك؟!

أيمم وجهي شطر اليسار.. المطبخ يحتل مجال بصري، يخرج منه ضوءٌ ساطع هو الآخر.. اتجهت نحوه ودلفت للداخل، لأجد الضوء يسطع من الأرض أمامي مباشرةً..

- هناك شيءٌ ما بداخل المطبخ أمام المدخل..

تركيزي يتضاعف، ويزيح أصواتهم كلها إلى خلفية المشهد.. لسببٍ ما أستمتع بالأمر، وكأنه رحلة قصيرة غريبة لدرجة الإثارة.. أدور في الشقة كلها، لأقلبها رأسًا على عقب، باحثةً عن الأضواء.. أصوات نقاشهم

الهامس الحاد تأتي من اللامكان، كأن الجدران الحبرية نفسها تتكلم..

ضوءٌ آخر في الحمام، تحت الحوض مباشرةً.. وآخر في غرفة نوم (وئام) و(شروق).. تحت السرير مباشرةً، يلتصق بالخشب..

أعلمتهم بعباراتٍ مقتضبة، فسألني هو تأكيدًا:

- هل ترين شيئًا آخر؟

هززت رأسي نفيًا، كأنما هو يراني بالفعل..

- لا..

- جيد.. جيد جدًا.. عودي إذًا.. أخرجي من باب الشقة مرة أخرى، من حيث جئتِ..

فأعود.. أدور في موضعي، وأتجه صوب باب الشقة لأفتحه، وأخطو خارجةً.. لا شيء أمامي سوى الظلام،

فلا أرى الدرج كأنه ليس موجودًا.. كأن كل ما هو مكانه هو العدم..

ثم أنه يزيل الغطاء من على رأسي وهو يتمتم ببعض العبارات، فأشهق.. كأنني سقطتُ سقوطًا طويلًا، ولم يلق جسدي أرضًا ولا قرار..

عيونهم الشاخصة حولي، تتفحصني في فضول.. تلك الصغيرة فعلت كل هذا، ورأت كل هذا.. كيف ؟! لم يكونوا يفهمون، ولم أكن أفهم أنا، أو أستوعب ما أفعله.. لا تنس سني وقتها، ثم أن الأمر بالنسبة لي كان أشبه بتجربة مثيرة، أو (سحر) كما يسميه الأطفال.. أنت تعرف ممارسي فن الوهم Illusion، وكل هذا الهراء الذي يصنعونه بورق اللعب والولاعات والميداليات الصغيرة.. بالنسبةِ لي، كان هذا نوعًا متقدمًا من السحر، أكثر إتقانًا.. مما يدلل على براعة صاحبه بالتأكيد..

يد الشيخ المعروقة المشعرة تناولني بعض الماء في دورق، فأحمله بين يداي، وأرفعه على فمي لأشرب،

بينما المياه تسيل على ملابسي قطرات..

- ارتاحي لبعض الوقت..

هو ليس بحاجة للسؤال.. اشعر بإرهاق غريب، كأنني قطعت درج بنايتنا كله صعودًا وهبوطًا..

صوتهم يتكلمون، ولا أسمعهم.. ألتقط أنفاسي، وأحدق في الطبق الذي أجلس أمامه بلا استيعاب لما أراه يتمثل أمامي.. الشرود الذي يستولي على العقل، فلا تتذكر ما كنت تفكر فيه..

لا أتذكر بالضبط أنا أيضًا، فلست مختلفة عن الآخرين، ولكنني أذكر جيدًا أن الشيخ رآني وأنا أنظر داخل الطبق في شرود، فسألني:

- هل ترين شيئًا ما؟

أومىء برأسي إيجابًا..

- نعم.. نعم أرى..

فيدير رأسه لأبي وخالي وبقيتهم بنظرة ذات معنى، ثم يقول:

- ماذا ترين؟

أدقق أكثر فيما أراه، ولأول مرة، أركز..

- أرى عصفورةً تقف على غصن..

أدقق أكثر.. ما هذا الذي على رأسها الصغير؟

- ترتدي تاجًا على رأسها..

يصمت لحظة ليفكر، ثم يسأل:

- وما لون التاج؟

- ذهبي..

فيدير رأسه نحوهم ليقول مفسرًا:

- تلك هي ملكتهم.. رمز العصفورة والتاج شهير، والعقل دومًا يستعمله لكي يبين السلطة والنفوذ..

يسأله خالي (عبدالعزيز):

- ومن ملكتهم تلك؟

فيجيب:

- سنعرف حالًا..

ثم أدار وجهه لي، واقترب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة مطمئنة:

- مستعدةٌ لتجربي مرة ثانية؟

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أبتسم بمرح.. لم أكن أفهم ما يحدث بالضبط، ولكن الأمر كان ممتعًا أكثر بمراحل من اللعب مع (وئام).. هذا هو كل ما يهمني.. كأنها سينما صغيرة تدور في عقلي ومخيلتي أنا فقط..

مد يده، والتقط الوشاح الداكن مرة أخرى، وعدل من وضعية جلوسي، ثم غطاني به بنفس الطريقة، وهو يطلب مني النظر بداخل الطبق من جديد..

نظرت، وركزت نظراتي بداخله، بينما بدأ هو في الغمغمة الخافتة الممتزجة بحروف القرآن مجددًا.. لا أفهم ما يقوله ولا أفقه، ولكن وقعه غير مريح.. طريقة امتزاج الحروف نفسها لها وقع ثقيل على الأذن، لا تحب سماعه..

ثم يسأل هو بطريقة آمرة، كأنما هو يكلم أشخاصًا ما لا وجود لهم:

- أظهِروا لها من فعل ذاك..

نفس صوت القرقعة الخافتة، والوجود الغير مريح.. كأنما الرهبة ذاتها تتجسد في الهواء، وتحتل مجرى التنفس..

ما زلت لا أرى شيئًا، بينما هو يعقب أمره بأمرٍ آخر، وصته يعلو نسبيًا:

- أروها بحق العزيز المصور..

فأرى فجأة.. وجهٌ ما يتشكل بين الحروف المرتسمة في الطبق.. شعرها مشعث غير مصفف.. مقصوف الأطراف كأنما تم كيه على النار.. وجهها مغضن الملامح، ولكن ملامحها مألوفة.. كأنها نسخة طاعنة السن من آخرى أعرفها جيدًا..

- أراها..

أكاد أشعر بنظرات الترقب المنعكسة على الوشاح، كأنما هي توشك على اختراقه.. الكل ينتظر.. وصوته يأتي في سؤالٍ جديد:

- من هي؟

أتفرس في ملامح الوجه أكثر.. إنها هي.. ملامحها مختلفة متغضنة، ولا تشبهها في الحياة العادية، ولكنها هي.. لا شك..

- خالتي (أميرة)..

وقع الإسم يصنع صمتًا رهيبًا بينهم، كأنما على رؤوسهم الطير.. ثم صوت (عصمت) يتعالى:

- ألم أقل لكِ؟ كنت متأكدة.. هي الوحيدة التي يمكن لها أن تفعل شيئًا كهذا..

لمن توجه كلامها؟ لا أرى شيئًا بسبب الوشاح، ولا يرد عليها أحد..

صوت الشيخ يأتي بسؤالٍ آخر:

- من معها؟

أدقق النظر.. لم أكن أرى أحدًا في البداية، ولكن - ببطء - بدأ وجهه في التشكل جوار وجهها.. نفس الملامح المغضنة والشكل الشنيع الذي يذكرك بشكل الشياطين في لوحات (مايكل آنجلو).. على عينه غطاء أسود كالقراصنة، ولكن ليس له حبل يمسكه.. ملامحه لا تشبه شكله الطبيعي، ولكنها مألوفة، يصرخ بها عقلي الباطن بلا كلل..

- عم (حمادة) زوجها..

صوت (شروق) يأتي في الخلفية، متوترًا:

- سأخرج لأتنفس.. لا أقوى على المواصلة..

ثم صوت الشيخ يسأل من جديد:

- وأين وضعوه؟

مازلت أحدق في الطبق، ولكن وجهيهما لا يتغيران.. لا أرى شيئًا آخر..

- لا أرى شيئًا سوى وجهيهما..

فيغمغم هو من جديد.. نفس الكلمات الغامضة المقبضة التي تتخللها أسماء الله الحسنى، وآيات القرآن، ثم يقول بنفس الصوت الآمر قوي النبرات:

- أروها بحق المصور البصير.. أظهِروا لها مكانه..

صوت القرقعة من جديد، ثم المشهد يتشكل.. ما هذا بالضبط؟.. المعالم غير واضحة، ولا أميزها إلا بعد وهلة.. هو صليب.. صليب عملاق، متشقق، غريب التكوين.. كأنما هو نُحِتَ من شجرة جافة غصونها ميتة..

- أرى صليبًا..

صوته يأتي مفسرًا:

- وضعته في كنيسة..

ثم يسألني وصوته يعلو لا شعوريًا:

- ماذا ترين غير ذلك؟

شكل النقوش يتغير، وترسم منظر طريق طويل مظلم، تغلفه عتمة حالكة، لا ضيّ فيها..

- أرى طريقًا طويلًا مظلمًا..

صمتٌ دام برهة، لم أر فيه وجوههم وهم يحدقون في بعضهم البعض، ثم يقطع صوت خالتي (عصمت) السكون:

- تلك هي الكنيسة التي على طريق حلوان تقريبًا.. سمعتها سيئة، وسمعت عنها الكثير من الأقاويل..

لم أر يد أمي وهي تربت على ركبتها، بينما صوتها - أمي - تقول:

- ليس هذا وقته الآن يا (عصمت).. اصمتي..

فتصمت.. ويأتي صوت الشيخ متسائلًا:

- من الذي وضعه، وقام بإيصاله إلى هناك؟

لوحة جديدة تتشكل، وتتغير تفاصيلها كأنما هي حقيقة واقعة، داكنة المعالم.. ذلك الوجه الأسمر الذي يحدق إليّ بعيونٍ زرقاء كالبحار.. ملامحه دقيقة تشي بصغر سنه الذي لا يتعدي سني تقريبًا، وله ذقن مشعرة طويلة تتناقض مع ملامحه الطفولية، وتمتد حتى

أطراف الطبق، يذكرك منظرها بشكل ملوك الفراعنة في تماثيلهم.. هل رأيت قناع (توت عنخ آمون) من قبل؟.. هو نفس المنظر الغريب..

- هو ولد صغير أسمر، لديه ذِقنٌ طويلة..

صمت لحظة، ثم قال مفسرًا الأمر لهم:

- ذاك هو الخادم الذي قام بكل هذا من أجلهم..

جاء صوت جدتي، بنبراتٍ مستنكرة، يتخللها حزن عميق:

- لا أصدق أنه يمكن لها أن تفعل بنا كل هذا.. خادم؟

فقال هو بدون أن يعقب على ما قالته:

- حسنًا.. ارتاحي قليلًا، وأتركي نفسك لتستفيقين..

فأشعر بعضلات جسدي تتراخى، وتركيزي يتشتت، قبل أن يزيل هو الوشاح من جديد، فأشهق بنفس

أطراف الطبق، يذكرك منظرها بشكل ملوك الفراعنة في تماثيلهم.. هل رأيت قناع (توت عنخ آمون) من قبل؟.. هو نفس المنظر الغريب..

- هو ولد صغير أسمر، لديه ذِقنٌ طويلة..

صمت لحظة، ثم قال مفسرًا الأمر لهم:

- ذاك هو الخادم الذي قام بكل هذا من أجلهم..

جاء صوت جدتي، بنبراتٍ مستنكرة، يتخللها حزن عميق:

- لا أصدق أنه يمكن لها أن تفعل بنا كل هذا.. خادم؟

فقال هو بدون أن يعقب على ما قالته:

- حسنًا.. ارتاحي قليلًا، وأتركي نفسك لتستفيقين..

فأشعر بعضلات جسدي تتراخى، وتركيزي يتشتت، قبل أن يزيل هو الوشاح من جديد، فأشهق بنفس

الطريقة.. كأنما أحدهم سكب دلوًا من الماء البارد فوق رأسي..

ضوء الغرفة شديد وساطع أكثر من المعتاد، لا تحتمله عيناي، فأضيقهما وتتشابك أهدابي إتقاءه..

يناولني دورق الماء الصغير، فأجرع منه جرعة طويلة.. جسدي مُنهك، ولكنني لا أجسر على أن أصارحهم بهذا.. هم يعتمدون عليّ، لذا فيجب أن أتحمل.. أنت تعرف رغبة الصغار في إرضاء ذويهم الكبار بأي شكل حينما يكونون موضع الاهتمام.. شعور اهتمامهم يدغدني.. يتعاملون معي كبالغة تُقدِم على ما لا يستطيعونه هم، غيرُ مهتمين بصغر سني.. لا يمكن أن أسمح لبعض الإنهاك أن يسلبني شعور الفخر ذاك..

يتكلمون هم فيما بينهم.. يتكلمون كثيرًا، وتتخلل حوارهم تفاصيل لم أكن أفهمها وقتها، فلم تكن لدي دراية بالموقف، وبعلاقاتهم الشخصية بينهم وبين بعضهم.. ولكن سيرة خالتي (أميرة) وزوجها كانت هي محور النقاش.. ولم تكن بالخير كما لك أن تخمن.. من

الصعب أن تذكر أحدهم بالخير، بينما هو يكتب اسمك واسم أفراد عائلتك على الأعمال القماشية في الكنائس المهجورة سيئة السمعة.. هي طبيعة بشرية أظنك تفهمها..

أتذكر محور خلافهم مع أمي وأبي.. فقد كان أبي يملك سيارة حديثة تعمل كسيارة أجرة، وكانت تدر دخلًا وفيرًا في بداية ابتياعه لها.. ولكن مع الوقت تغير حالها، وأصبحت كثيرة الأعطال بشكلٍ غير طبيعي.. كلام كثير عن الكبالن وفلتر البنزين والكتاوت الذي لا أعرف ما هو.. كلما أصلح فيها شيئًا، ودفع ثمنه نفيسًا، تعطل شيءٌ آخر.. حتى أصبح من الواضح أنه يصرف دخل السيارة عليها، و عليه ما يزيد قليلًا.. ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل أصبحت أعطال السيارة شبه دائمة، فلم تعد تصلح للعمل.. لم تكن تخرج تقريبًا من ورشة الميكانيكي..

لم يكن أبي يفهم سبب هذا في البداية، ولكن مع الوقت، تكون لدى أمي اعتقادٌ خاص بأن خالتي (أميرة) هي خلف كل هذا لسببٍ ما لم أكن أفهمه أو

أعرفه.. وهو ما كانت تقوله لجدتي التي كانت شديدة الإيمان بالأعمال والسحر كما تعرف.. كانت تؤمن أن خالتي (أميرة) قد رشت بداخلها (تراب ثُرَب) حد قولها، حتى تصير نحسًا، ولا تعمل.. لم أكن أفهم ما هو (تراب الثُرَب) هذا، ولا ماهيته.. ولم أكن أفهم سبب إعتقادهم ذاك حينها.. لماذا تفعل خالتي ذلك؟.. ما هدفها؟.. لا أعرف..

لذلك، فعندما احتدم النقاش بينهم وقتها، كان هذا الأمر هو سيد الحوار بالطبع.. (تراب الثُرَب)، والكنيسة التي على طريق حلوان.. طبعًا في ذلك الوقت لم يكن طريق حلوان كما هو الآن، ولم يكن العمران قد امتد لتلك المناطق كثيرًا.. لذلك فالمنطقة التي يتكلمون عنها على ذلك الطريق كانت نائية، شبه خالية، تصلح جدًا للسحر والأعمال، وكل تلك الأشياء الكابوسية التي يمكنك أن تتخيلها..

دام النقاش بعض الوقت، ثم قال خالي (عبدالعزيز) أنه يرغب في أن يعرف ما لو كانت قد وضعت شيئًا ما في بيته هو الآخر، فالتفتوا جميعًا نحوى من جديد..

الكبار يعتمدون عليّ لأفعل شيئًا لا يقدرون هم على فعله ولا يجسرون.. أيُ متعةٍ تلك.. لابد أن هذا حلم..

جرعة أخرى من الماء، ثم الوشاح، والتركيز بداخل الطبق.. نفس آيات القرآن والعبارات الغامضة المقبضة غريبة التراكيب..

صوت القرقعة الغريب، الأشبه بطرقعة الأصابع، ثم فجأة ؛ أنا هناك.. أقف أمام باب شقة خالي (عبدالعزيز) هذه المرة..

نفس المعالم المظلمة باللونين الأبيض والأسود.. أدلف إلى الداخل، وأطوف في الشقة، لأستخرج مواضع الأضواء الساطعة رمادية اللون، كأنها لعبة مسلية.. أولها تحت منضدة التلفاز في غرفة النوم، والثاني بين خصاص نافذة الصالة.. هناك آخر بداخل غرفة (محمد) و(نادية) أبنائه، تحت سريرهما المزدوج ذى الطابقين.. في نفس الموضع الذي رأيته تحت سرير (شروق)..

صوته يأتيني، ويسأل:

- هل هناك شيءٌ آخر ترينه عندك؟

جولة سريعة بعيني في غرفة النوم، بعد جولة أكبر في الشقة بأكملها.. لا شيء آخر هنا..

- لا.. لا أرى شيئًا..

صوته يتنهد في ارتياح، ثم يقول:

- إذا هيا، عودي من جديد نحو باب الشقة، حيث جئتِ..

فأدور حولي لأبحث عن باب الغرفة.. المعالم ذاتها تتغير وترتسم متشكلةً من جديد.. لا أدرى من أين جئت !

- لا أعرف من أين أخرج !

صوته يأتي سريعًا، متوترًا:

- ماذا تعنين؟!

لأول مرة منذُ بداية تلك التجربة، تنامي لديّ شعور خوفٍ حقيقي، مع نبراته المتوترة، وشعور الكلوستروفوبيا العارمة التي انتابتني، كون الغرفة ضيقة ومعتمة تمامًا.. الأماكن المغلقة تثير ذعري دومًا، بلا مبرر واضح..

- الممر الذي جئت منه تغير، وأضحى هناك حائطًا مكانه.. لا توجد أبواب..

شهقات، وأنفاس متعاقبة.. صوت أبي يأتي قويًا، يتبدى القلق في نبراته جليًا:

- ما الذي يحدث؟

لا أرى هذا، ولكن يد الشيخ تشير له أن يصبر، ثم يستجمع تركيزه، ويتمتم ببعض العبارات الغير مفهومة، ثم يقول بصوتٍ تهتز نبراته بعض الشيء، لا تفعمه تلك الثقة التي كانت:

- قفي مكانك، ولا تتحركي مطلقًا..

لا أفهم.. ما الذي يمنعني الآن من النهوض من مكاني، وإزالة ذلك الوشاح.. شعورٌ مقيت هو، يجب أن ينتهي.. حاولت فعلًا، ولكن عضلاتي وجسدي كله لم يستجب إلا داخل المشهد الحبري الذي يدور في مخيلتي.. كأن كينونتي ذاتها أضحت داخل ذلك الكابوس، سجينة بلا مهرب..

صوت الشيخ يأتي من اللامكان، وهو يغمغم بآيات القرآن، مصحوبةً بعباراتٍ ما لا أفقهها..

ذلك الوجود الغريب الذي يتمثل حولي في فضاء الغرفة حرفيًا.. لا أستوعبه، ولكنه يغمرني بشعور كابوسي، كأنه يجثم على أنفاسي، فتغدو الأنفاس ذاتها ثقيلة.. كأن صدري يحمل صخرة لا تتحرك، ولا يزول أثرها..

ذلك التجسد الداكن، الذي يتكون ويتشكل هناك في ركن الغرفة.. معالمه غير واضحة، ولكنه يملك أطرافًا..

يتجسد كالدخان، وتتطاير جزيئات جسده الهوائي في كل مكان، كالشرر حول الجمار..

ثم أحدق أكثر في معالمه مسحورة..

تلك الأطراف.. ليست أطرافًا، بل هي شيءٌ ما لا أدري كنهه.. ذراعاه طولهما لا يستوعب، سميكتان كأنما هما فخذان.. وفخذاه ذاتهما أشبه بالأذرع شديدة النحافة، قصيرة التكوين، ولكن قصرها لا يشكل فارقًا لأن تلك القدم الضخمة تعوضه.. قدم لم أر ما هو في مثل حجمها من قبل.. حجمها وطولها اشبه بكومود صغير.. تقف على أطراف أصابعها، لتكسب الجسد التي هي حاملتهُ طولًا إضافيًا..

ثم أنه يقترب.. يقترب مني، ويوشك قلبي على أن ينخلع من مكانه ذعرًا.. سرعة ضرباته تتزايد حتى تغدو أشبه بخفقة واحدة طويلة مستمرة..

صوت الشيخ يتعالى، ويبدأ في فقدان أعصابه:

- بحق الملك الجبار.. اتركوها تخرج، واركعوا..

صوت نفس القرقعة الخافتة الغير مفهومة يمتزج بحروف القرآن، وهمسات الحضور، فيضفي على المشهد مؤثرات احترافية يعرفها كل مخرج أفلام رعب يجيد عمله..

التوتر، والعرق.. الكثير منه، برغم برودة الجو النسبية.. ذلك العرق البارد الذي يشعرك بأنك لست على ما يرام.. ساقاك اللتان لا تقدران على حملك، ولكنك تتحامل على نفسك حتى لا تسقط..

رائحة الأدرينالين التي تفعم الجو حولك.. توشك على أن تشمها فعلًا.. الآن أنت تفهم ما كانوا يقصدونه حينما أمروك بأن لا تهرب من أمام الكلاب لأنها تشم رائحة الخوف..

أنت الآن تشُم رائحة الخوف فعلًا، وتتجسد في عالمك حرفيًا.. كأن لها وجود مادي..

وجود مادي أشبه بالدخان، تتطاير جزيئات جسده كشررٍ لهيب، ويقترب منك حتى يقف أمامك مباشرةً..

دودة الكتب حزامية

جسده طويل.. طويييييييييييييييييل كالكوابيس.. كليلة حالكة بلا نهاية.. رأسه الدخاني يلامس السقف ذاته، وربما يمر من خلاله..

لا عيون له، ولا تستوعبها، ولكنه ينظر إليك، وتورثك نظراته شعورًا مقيتًا، كأنها تحرق كالحمض..

ما زال صوت الشيخ يتمتم بالأدعية والقرآن، والعبارات والألفاظ الغامضة، وصوته يعلو أكثر..

صوت أبي يتعالي في توتر هو الآخر، بعد أن رقب انتفاض جسدي الذي لم ألحظه:

- لماذا لا تقوم بإفاقتها؟ أزل ذلك الوشاح من على...

فيقاطعه الشيخ بعصبية أشبه بالصراخ:

- لا يمكن.. ستُصدم حينما تعود لعقلها الطبيعي، وستغدو تلك مشكلة كبيرة!

دودة الكتب حرامية

ونفس ذلك الكائن ينظر إليّ، ثم ينحني.. رائحته الكريهة الأشبه بالكبريت تفعم أنفي، وتحرق عيني، فتدمع.. تمتد كفه السميكة لتحيط أصابعها الطويلة التي لا معالم لها عنقي، وتضغط، فأختنق..

أجاهد لالتقاط أنفاسي وأنا أحاول أن أحرر عنقي، فلا تقبض يدي سوى على الهواء..

- هاااااه.. غووووه..

أبي يفقد أعصابه حينما سمع صوتي وأنا أختنق، فيدفع الشيخ وتحذيراته جانبًا، وينقض عليّ جاذبًا الوشاح..

شعور الاحتراق.. كأن ألف شمس سطعت فجأة على كل خلية من خلايا جسدي.. الضوء الساطع الذي يعميني تمامًا، والهواء الذي يدخل فجأة لصدري بعد غياب.. يدخل ملتهبًا كأنما هو آتٍ من أعماق جحيم مستعر..

دودة الكتب حرامية

أصرخ.. أصرخ كمن يحترق حيًا، وهو ما لم يكن بعيدًا كثيرًا عن الحقيقة.. أفتح عيني متغلبةً على الضوء، وأصرخ..

الشيخ يحاول تهدئتي، وجميعهم يمسحون على شعري وجسدي، ولكنني عيني لا تراهم، ولا تنظر سوى لما هو هناك، وراءهم في خلفية المشهد..

هو نفسه.. نفس الكائن الذي كنت أراه تحت الوشاح، في الحقيقة وبالألوان هذه المرة، حضوره كابوسي لا يمكن استيعابه..

يتفكك جسده، ويتحول لخيطٍ طويل من الدخان، يسري نحوي في سرعة لا تستوعب، فأصرخ من جديد.. كأن أحدهم ينحر أطرافي نحرًا..

ثم ينتهي كل شيء..

كفوفهم وشفاههم تنطبع على كل جزءٍ في جسدي، وأمي تحملني بين ذراعيها، وتحتضنني في ارتياع،

دودة الكتب حرايبة

يمتزج بحنانٍ جارف.. كأنما هي تريد أن تضعني بداخل جسدها من جديد، لتحميني من الهواء ذاته..

الدموع التي تجري على وجنتي، وأنا أنهنه في خفوت، فيمسحها الشيخ الذي صرت أخشاه كالجحيم، وهو يقول:

- هل تشعرين بأن ذراعك قد صار أثقل؟

فأحرك ذراعي قليلًا.. لا أعرف.. ربما.. لا أستوعب في غمار ما أشعره الآن، وجسدي كله ما زال يرتجف..

- نعم..

لم أكن متأكدة، ولكنني آثرت الرد بالإيجاب، ولا أدري لِمَ.. كأنني أريد توجيه العتاب له على شيءٍ ما لا أدري كنهه..

يدير هو وجهه لأبي في عتاب، فينظر الأخير بعيدًا وهو يزفر في ضيق نافخًا توتره في الجو، بينما يقول الشيخ موجهًا كلامه إلى أمي:

- لا تنسي أن تغسلي هذا الطبق جيدًا، وأن تلقي بمياه غسيله في الشارع.. لا تلقيها في المرحاض.. ويستحسن أن ترمي الطبق بأكمله لو كنتِ تقدرين..

ثم استدار إليّ، وابتسم وهو يقول بنبراته الرنانة مطمئنًا:

- لا تخافي.. لا شيء سيؤذيكي من جديد.. قد انتهى الأمر..

فتعلقت نظراتي به، وأنا أرتجف، ودموعي ما زالت تسيل في نفس موضعها..

لم يكُن يعرف أن هذه ليست سوى البداية فقط..

وأن القادم مقبض، وشنيع أكثر بما لا يقاس!

* * *

- 2 -

خلاف غريب بعض الشيء

دعني أحكِ لك قليلًا عن الخلاف الدائر قبل كل هذا، والذي عزز شكوك أمي وخالتي (عصمت) في كون خالتي (أميرة) تملك علاقة ما بكل ما حدث..

لم أكن أعرف ما أنا على وشك أن أحكيه لكَ الآن، وإنما عرفته بعدها بفترة طويلة جدًا، تقترب من السنين.. أنت تفهم لماذا بالطبع، فليست هذه الأمور مما يمكن أن يعرفه طفل في الثامنة.. ولكن انغماسي في الأمر بعدها، جعلني طرفًا أساسيًا في الحكاية، وكانت معرفتي حتمية..

دعني أحكِ لك الآن، حتى يسهل عليك تكوين فكرة عن الأمر، لئلا تشتتك الأحداث القادمة.. ولكن يجب أن لا تنسَ أنني لم أكن أعرف كل هذا وقت مروري بالأحداث.. لذلك فقد كانت درجة فهمي للموضوع شبه معدومة..

كان الأمر في البداية يتعلق بخلاف عقاري، كمعظم المشاكل التي تنشأ بين أفراد العائلة الواحدة..

شقة كبيرة في قريتنا، كانت خالتي (أميرة) تريد شراءها، وكانت وقتها تحاول الوصول لاتفاق مع أصحابها على سعر مناسب.. كانت الأمور تسير بشكلٍ طبيعي للغاية، حتى قررت خالتي (عصمت) أنها تريد هذه الشقة بالذات.. ولم أفهم السبب أبدًا..

فجأة، قررت خالتي (عصمت) أن هذه الشقة بالذات هي ما تتمناه، وتحلُم به، وأنها تريدها مهما كان الثمن.. ومن هنا بدأت مفاوضاتها مع أبي..

وقتها كان على علاقة طيبة بملاك تلك الشقة، وكانوا أصدقاءًا مقربين له.. وهو ما استغلته خالتي (عصمت) في طلبها منه بعد ذلك أن يتوسط لها عند المُلّاك، حتى يمكنها الاتفاق معهم وشراءها، ضاربةً بمحاولات خالتي (أميرة) عرض الحائط..

لم يكذب أبي خبرًا، فهو طيب وخدوم كما تعرف، بالإضافة إلى أن عائلتي وعائلة خالتي (أميرة) وقتها كانتا على خلاف طويل، لسببٍ لا أعرفه، ولم تكن الأمور طيبة ما بيننا وبينهم.. قام والدي وقتها بالتوسط لـ (عصمت) لدى المُلّاك، وأقنعهم بأن يقوموا ببيعها لها بسعرٍ أفضل من ما قدموه لـ (أميرة).. بل أقرضها نسبة كبيرة من ما كانت تحتاجه لإتمام الصفقة !.. كأنه كان يريد أن يسدد ضربة لـ (أميرة) بشكلٍ ما، وجاءت (عصمت) لتعطيه الفرصة.. وكان كل هذا يتم بمباركة أمي بالطبع..

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى كانت الشقة باسم (عصمت) رسميًا.. وعرفت بعدها أنه حين وصول الخبر لـ (أميرة)، كانت على وشك الإصابة بالفالج، والموت غيظًا..

طبعًا أنت كمشاهد خارجي تجد الأمر تافهًا.. ومعك حق.. هو تافه فعلًا.. ولكن وجهة نظر (أميرة) لم تكن بمثل هذا التعقل والنُضج.. وكان معها حق لو فكرت في الأمر.. فقد أرادت شيئًا بشدة، واجتمعت (عصمت)

وأمي وأبي على سلبها إياه.. لم يكن التعقل خيارًا متاحًا وقتها بعد ضربة كهذه.. دعك طبعًا من الخلاف الذي كان بينهم في الأساس..

أقسمت(أميرة) وقتها على الإنتقام.. ولم يكن قسمها ذاك مزاحًا، فهي قادرة على التنفيذ بالفعل.. ثابتة الجنان، وسوداء النفس والروح بطريقة لا تصدق.. قدرتها على التفكير في الإيذاء، والإتيان بطرق فريدة من نوعها لتحقيق أهدافها تبهر أي قاتل متسلسل رأيته في حياتك.. كانت تحمل بداخلها بذرة الجنون التي لم تكن تحتاج سوى لدفعة بسيطة حتى تخرج للسطح.. وهو ما قد كان..

كل ما حدث وقتها لم أكن أعرفه جيدًا، ولم أسمع عنه إلا بعدها بأعوام.. ولكنني أردت أن (أضعك في الجو) كما يقولون.. أنت لست البطل بعد كل شيء، ولا مبرر هناك يجعلك تعاني لتفهم.. تكفي معاناة البطل ذاته.. كونك قارئًا ومستمعًا يعطيك الأفضلية دومًا، ويخلق لديك نظرة شاملة للموقف، لم تكن متوافرة للبطل ذاته أثناء مروره بالتجربة.. فاستمتع بكونك مستمعًا..

واسمع ما حدث بعدها..

***

- 3 -

أحلام غير معتادة

***

"بحق الملك الجبار.. اتركوها تخرج، واركعوا.."

***

مر الموقف الذي حكيته لك بسلام، ومرت أيام عديدة عليه، بدون أي جديد..

لم ينسهُ أحد الحاضرين، ولم أنسه أنا طبعًا، وإن تناسيته.. وعرفت بعدها أن قصة (أميرة) لم تنتهِ عند هذا الحد، بل كان هناك المزيد في الطريق.. ولكن هذا لم يكن يعنيني كثيرًا.. فقد كان سني الصغير عاملًا أساسيًا في إعطائي ذاكرة ذبابة.. نسيت كل شيءٍ عن الأمر فعلًا بعدها بأيام..

ولكنّ الأمر لم يكن على وشك أن ينتهي بتلك السهولة..

مازلت حتى الآن أذكر ذلك اليوم بالذات..

نومٌ عميق بعد سهرة طويلة من اللعب مع ابنة الجيران.. الإرهاق هو أفضل منوم للأطفال.. لو كان طفلك يثير جنونك، فالحل الأسلم والأكثر قانونية هو أن ترهقه إلى حد الإغماء لينام قريرًا؛ قبل أن تقتله خنقًا..

ساعات الليل الأخيرة التي تشعر فيها بأنك ضعيف كالقطط.. تشعر أن رأسك لا يحمل وزنًا، وأن عزيمتك ليست هي التي تحركك.. بل شيءٌ ما.. شيءٌ آخر.. يسمونها دومًا بساعة الذئب، ولا تسألني لماذا..

ظلمة الحوائط، والغرفة الخالية التي لا تحوي سواك، وسوى الأحلام..

وحدك.. وحدك تمامًا، لا يؤنسك سوى صمتٌ رتيب، كسكون الكون ذاته..

و البرد..

ذلك البرد القارص الذي يستولي على الموجودات، ويغلف هواء الغرفة ذاته رغم أن هذا هو الصيف الذي توشك حرارته على إزهاق روحك.. لا تدري من أين يأتي..

وذلك الشعور الذي لا سبيل لوصفه.. شيٌ ما لا تقدر على استيعابه، ولكنه هناك.. يراك، ويرقبك من حيث لا تفقه، في غمرة نومك..

صوت الهسيس الخافت، الذي يتعالى تدريجيًا، مصحوبًا بصوت هدير رتيب، يأتي من اللامكان..

يستمر بعض الوقت، ولا تفقهه تلك الصغيرة النائمة في ركن الغرفة، حتى يتوقف الصوت فجأة..

ثم يبدأ صوت الأنفاس..

شهيق.. زفير.. ثم شهيق آخر، فزفير..

رتيب، وخافت لا تكاد تسمعه، ولكنه هناك.. يسهم مع معالم الغرفة المظلمة تمامًا في إعطاء المشهد صفة

مقبضة، ويزرع في قلبك رهبةً لا سبب لها..

برغم الظلام، أنت ترى بعينيك طرف الملاءة الذي يتحرك من تلقاء نفسه، بدون أي سبب فيزيائي !..

تراه يرتفع في الهواء حثيثًا، ويسقط في موضعه من جديد.. ثم يتحرك من مكانه، كأنه في مهبِ نسمات ريحٍ خفيفة..

ربما كانت رياحًا فعلًا، ولكنك لا تقدر على ابتلاع ذاك التفسير.. من أين تأتي الرياح ؟!.. باب الغرفة مغلق، وليست هناك شرفة.. حتى النافذة محكمة الغلق.. لا يوجد أي مدخل للهواء..

ثم أن طريقة حركة الملاءة ذاتها غير فيزيائية.. لا يمكن أن تسببها أي رياح طبيعية!

أنت تعرف من داخلك أن هذا شيء آخر.. شيءٌ لا تدري كنهه، ولكنه يثير في نفسك هلعًا ليس بدون مبرر..

لم أكن أشعر أنا بكل ما يدور، وإن كان البرد قد ساهم قليلًا في أن يقلق مضجعي، فتململت قليلًا.. حتى سمعته لأول مرة..

صوته أشبه بفحيح الثعابين، يهمس في خفوت ونبراتٍ بطيئة:

- (ندى)..

لم أنتبه في البداية، برغم أنني سمعته بوضوح.. أعزاه عقلي الباطن لخيالي، أو ربما لحُلمٍ يدور في مقلتي بدون أن أشعر..

لكنه جاء من جديد، بصوت أعلى وبداخل أذني مباشرة:

- (ندى)..

نهضت من مكاني وأنا أتلفت حولي في فزع..

أنت تعرف ذلك الهلع الذي لا يجدي معه التعقل، ولا يرضخ لأي منطق..

من أين أتى هذا الصوت ؟.. هو ليس صوت أمي أو أبي، أو أي شخصٍ أعرفه..

هذا صوتٌ لم أسمعه من قبل.. صوتٌ بلا صاحب !.. صوت لا يمكن أن يكون طبيعيًا أو صادرًا من مصدر طبيعي.. باب الغرفة والنافذة محكما الغلق.. لا مصدر هنالك..

ضربات قلبي تتعالى، حتى لتوشك على أن تكون مسموعة، ولأول مرة أنتبه للبرد القارص الذي يغلف الموجودات، فأفرك كتفي بكفي طلبًا للدفء.. حتى زفيري يتحول إلى بخار أبيض أمام عينيّ الذاهلتين..

يجب أن أخرج من هنا..

قفزت من على السرير نحو باب الغرفة، وامتدت كفي الصغيرة للمقبض لتفتحه بلا جدوي.. المقبض لا يدور، ولا يتزحزح حتى من مكانه !

ثم يأتي الصوت من جديد.. صداه يحدث دويًا بين جدران الغرفة هذه المرة..

- (ندى)..

ضوء الغرفة المغلق ينبعث وحده من المصباح الذي في السقف.. بلا سبب، أو مُسبب.. يتذبذب بقوة، ويسطع بطريقة زائدة عن المعتاد، ثم ينفجر، وتتناثر شظايا الزجاج في كل مكان..

قلبي يوشك على القفز من صدري ذعرًا.. لا أفهم ما يدور، ولا أفقه للصوت مصدرًا، ويورثني هذا هلعًا لا يجدي معه أي تعقل.. لا تجدي معه محاولاتي للسيطرة على أعصابي، فتخرج صرخاتي ممزقةً السكون..

تخرج ولا تتوقف.. كأنها وجدت سبيلًا لتتحرر، وهي ليست على وشك التخلي عنه..

أصرخ، وأصرخ، ثم أصرخ..

حتى وباب الغرفة ينفتح أخيرًا أصرخ..

حتى وأمي وأبي يحتضناني مهدئين أصرخ..

أمي تبسمل وتحوقل، وهي تمسح على شعري وتحتضنني بقوة توشك على تحطيم ضلوعي.. بينما أبي يسألني بلا كلل:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

ولا أرد..

ذاهلةً أنظر لهما بلا تعبير، ودموعي تنحدر على وجنتي بلا شعور..

وبلا صوت..

***

كانت تلك هي المرة الأولى التي مررت فيها بالتجربة بوضوح سافر لا يحتمل التأويل..

ذلك الصوت الذي يحمل اسمي فعلًا كان يأتي من اللامكان.. كأنما هو نابع من جدران الغرفة ذاتها.. بالإضافة إلى أن البرد كان غير طبيعيًا، خصوصًا أن هذا كان فصل الصيف كما قلت لك، ولم نكن حتى نملك مكيفًا..

لم يكُن هناك حتى سبيلًا لأن أعتقد أنني أتخيل، لأن نوافذ غرفتي كانت كلها مغطاة بطبقة كثيفة من الشبورة والبخار، كأنما هذه ثلاجة جثث، وليست غرفة طفلة في الثامنة.. لم يكن هذا طبيعيًا بالتأكيد..

ثم أن الكوابيس لم تتوقف عند هذا الحد..

***

هذه هي صالة شقتنا..

الأنوار المُضاءة في كل ركن، وكعكة عيد الميلاد البيضاء الصغيرة في منتصف الردهة.. تعتليها قطع الفاكهة المُلونة..

أختاي الاثنتان جالستان على الأريكة في الركن، وأبي يعبث في التلفاز لسببٍ ما، حتى يطفئه أخيرًا..

أمي تخرج من المطبخ، وأنا خلفها، لترى منظر الكعكة، وتبتسم ابتسامة واسعة، بينما أبي وأختيّ ينهضون، وهم يبدأون في الغناء..

- سنة حلوة يا جميل..

ابتسامتها تتسع، وهي تحتضنني بحنانها المعهود، بينما أبي يلتقط قطعة من الفاكهة التي تزين الكعكة، ويلتهمها مازحًا..

أختي تطفيء الأنوار، بينما أبي يشعل الشموع التي وضعها في الكعكة، ونحن نُغنّي ونصفق..

ما الذي أتي بي إلى هنا؟.. ما علاقة هذا المشهد بما كنت أحكيه من لحظات، وما الذي يحدث؟..

الغناء يتعالى، ولهب الشموع يتراقص، وهو يبعث ضيًّا أكبر من المعتاد، أو المفهوم.. كأنما الصالة كلها

مضيئة..

ثم هناك.. على الركن، كأنما ظِلٌّ يتحرك ولا يراه أحد أو يفقه وجوده، سواي أنا..

تتسمر حركتي في مكانها، وأنا أنظر نحو الظل الذي يتحرك من مكانٍ لآخر، بينما هم لا يفقهون شيئًا، ويواصلون الغناء، الذي تحول إلى ما يشبه الأناشيد الصوفية..

بنبرة رتيبة، أشبه بالصلوات الجنائزية..

- سنة حلوة يا جميييييل.. سنة حلوة يا جمييييييييل..

لا أفهم.. ما الذي يحدث بالضبط؟..

أمي تنتبه فجأة إلى ركن الصالة الآخر الذي ينبعث منه ضوءٌ أحمرٌ غريب..

ما هذا بالضبط ؟.. أدقق النظر أكثر..

إنه الراديو القديم الذي نشغله دومًا على إذاعة القرآن في أيام الجُمعة.. صغير أسود اللون، له مصباح صغير واحد أحمر، على جانبه، يضيء حينما يعمل..

أمي تقترب من الراديو في بطء، وهي تمسك بكفي وتسحبني خلفها..

الضوء المتقطع المنبعث منه يغمر الصالة بظلالٍ موجسة.. يضيء وينطفيء، كأنما هو تالف.. ولكن أنا دون سواي أعرف أن هذا ليس تلفًا.. شيءٌ ما يحدث..

شيءٌ ليس سارًّا بالتأكيد..

تقترب أمي، بينما أبي وأختاي الاثنتان مازالوا يغنون بنفس الصوت الجنائزي، ويصفّقون بدون حتى أن تتغير وضعياتهم، فيضفي صوتهم ومظهرهم على اللوحة العامة طابعًا مقبضًا، يزيد من وحشته مشهد أمي وهي تقف أمام الراديو، وأنا خلفها.. تتطلع إليه بعض الوقت، ثم تقول في هدوء ضاغطةً على مخارج حروفها:

- اجلسي يا (ندى)..

أقبض كفي على كفها في رفق لأجذب انتباهها..

- ماما.. ماذا هناك؟

صمت يسود لحظات.. ثم تستدير في بطء، ويلتف كامل جسدها حتى يصير وجهها وجسمها بالكامل في مواجهتي، ثم تنظر إلى عيني مباشرة، وتقول بدون أن يُطرَف لها جُفن:

- نحن لسنا وحدنا ها هنا!

***

طبعًا، كان هذا كابوسًا آخر.. ومن الإملال أن أخبرك بأنني وجدت مصباح الراديو الأحمر مضيئًا فعلًا حينما نهضت من مكاني بعدها.. هذا معروف ومفهوم ومتوقع لدرجة أنه صار مملًا..

ما الذي كان يعنيه هذا؟ لا أدري بالضبط، ولم أكن أفقه شيئًا مطلقًا وقتها.. كل ما كنت أعرفه هو أنني أمُر

بكوابيس فريدة من نوعها، كأي فتاة صغيرة واسعة الخيال، إلا أن الأمر في حالتي لم يكن خيالًا، لأنني كنت أستيقظ لأجد ما كنت أراه يحدث فعلًا.. سواءٍ الضوء المتذبذب أو مصباح الراديو.. لم أبتلع كون هذا صدفة، وأظنك توافقني على هذا..

لم يصدق أبي وأمي حرفًا مما حكيت.. هذا شيءٌ مفهوم آخر، وطبيعي لو فكرت فيه.. بالتأكيد لن يصدقا أنني أرى كائنًا غريبًا يناديني باسمي، أو أن أنوار الغرفة تضاء بدون أن يمسها أحد.. لسنا في فيلمٍ أمريكي هنا.. هذه مِصر..

أعزا كلاهما الأمر لحُلمٍ ثقيل، أو كابوس مقبض، صنع حضوره بداخل مخيلتي تجربتي مع الشيخ..

لم يكن هناك سبيلًا للجدال أو فائدة.. كل ما كانا يملكانه هو الدعاء، والتربيت على رأسي كالأطفال.. أعرف أنني طفلة، ولكن هذه ليست النقطة..

مرت الأيام والسنين حتى صار سني حوالي ثلاث عشرة سنة، وعرفت وقتها أن خالي (عبد العزيز) قد ذهب إلى تلك الكنيسة المهجورة التي رأيتها أنا في الطبق.. تلك التي قال الشيخ أن (أميرة) قد دفنت فيها العمل التي قامت بتحضيره لنا..

استفهمت كثيرًا عن ما حدث، ولكن أحدهم لم يخبرني وقتها.. سني الصغير كان يشكل عائقًا كبيرًا أمام معرفتي بأمور عديدة، كانت ستشكل وضعًا مختلفًا لو فقهتها في وقتٍ مبكر..

ولكن دعنا من هذا الآن.. كل هذا سنعرفه فيما بعد.. دعني أحكي لك أولًا عن صديقتي (إيمان)..

في سني وقتها، ومع نضوجي بمرور السنوات، لم أكن أملك الكثير من الأصدقاء، ولكن (إيمان) كانت تشكل لي كل شيء تقريبًا.. كل ذكريات طفولتي الممتلئة بتلك الأمور كانت معها..

دودة الكتب حرامية

كانت من عائلة محترمة ذات مستوى اجتماعي متوسط، وعلى قدرٍ عال من الثقافة، كمثل معظم عائلات الطبقة الوسطى في ذلك الوقت.. أمها معلمة، ووالدها ضابط بالجيش، وتسكن جواري بالهرم أيضًا، مما عزز علاقتنا أكثر..

زميلتي منذ السنة الثانية، وحتى الصف السادس الابتدائي، مقعدها بجوار موضعي.. عائلتها على علاقة طيبة بعائلتي.. هذا هو ما يخلق الصداقة التي تربط بين القلوب برباط أقوى من الأخوة ذاتها.. وربما لذلك، كانت هي الوحيدة التي لم أكن أخجل أو أخشى أن أحكي لها كل ما يدور ويجري في حياتي.. وكانت تصدق..

أنت تعرف مخيلة الأطفال والمراهقين.. كل شيء بالنسبة لهم هو عالم سحري سهل الضياع فيه.. كمغامرة خارجة من عالم أفلام (الكرتون) كما كُنا نطلق عليها وقتها، أو (الأنمي) كما يسمونها الآن..

كانت تؤمن أن ما مررت به في تجربة الشيخ هو شيء خارق، وأنه ليس طبيعيًا.. كان هذا هو العصر الذهبي لروايات ما وراء الطبيعة الشهيرة للدكتور (أحمد خالد توفيق) رحمة الله عليه، وكانت هي من قراءها المخضرمين، وغدوت أنا أيضًا تلبيةً لإلحاحها، ثم عشقًا لأحداثها ولأسلوبه وسخريته المحببة.. لذلك فقد كانت لدينا فكرة عامة عن هذه الأشياء.. كلمات كالمسّ والتجسد والإكتوبلازم لم تكن بعيدة عن ثقافتنا لهذه الدرجة!

دعني أحكِ لك ما دار بيننا في أحد الأيام، بعد انتهاء وقت المدرسة..

عودة الكتب حرامية

- 4 -

نظرية مرعبة وخيال أطفال وما إلى ذلك!

- هذا كل شيء.. وليست تلك أول مرة، بل لا أذكر هي المرة الكم.. ولا أحد فيهم يصدقني، أو يبدي استعدادًا لأخذ ما أقول على محمل الجدية..

نظرت لي (إيمان) للحظة، ثم قالت في اهتمام:

- إذًا تعنين أن هذا الحلم قد تكرر أكثر من مرة!

- نعم.. وبنفس التفاصيل حتى.. لكن على أوقات متباعدة..

مالت إلى الأمام لتستند بمرفقها على السور الذي نقف بجواره، وأسندت وجنتها إلى قبضتها المضمومة وهي تسأل:

- ماذا تقصدين بأوقات متباعدة؟ كم مرة مثلًا؟

زفرتُ زفرة حارة وأنا أحاول التذكر..

دودة الكتب حرامية

- لا أذكر بالضبط.. حوالي خمس أو ست مرات..

شردت هي بنظرها في الأفق للحظات، بدت خلالها جميلة جدًا، بينما ضوء الشمس التي بدأت في الغروب يسطع على عينيها الزرقاوين، فتلتمعان.. شعرها البني الفاتح يتطاير مع النسيم، بينما هي تغمغم:

- همممم.. غريب..

صمتُّ للحظات منتظرةً إياها لتقول أي شيء، فلم تنبس ببنت شفة..

- ثم؟ ماذا تظنين؟

دارت نظرة عينيها إليّ، وقالت وهي تمرر كفها بين خصلات شعرها المتطايرة، لتثبتها في مكانها:

- لا أعرف بصراحة.. أنا أصدقك، ولكن الموضوع شديد الغرابة فعلًا، وصعبٌ فعلًا أن يتقبل أبوكِ أو أمُّكِ أنه حقيقي.."

لم أتكلم وأنا أنظر إليها، فتابعت هي:

- وبسبب ما حدث لكِ مع ذاك الشيخ الذي حكيتِ لي عنه، من الطبيعي أن يواظبوا على محاولة اقناعك أن كل هذا مجرد كوابيس، وأن أعصابكِ متعبة..

شردت للحظات في منظر الأفق المصطبغ بضيّ شمسٍ غاربة، ثم قلت:

- أليس من الجائز أن تكون كوابيسًا فعلًا؟.. ربما كنت أنا من يخرف!

- هل تشعرين أن ما حدث لكِ ليس حقيقيًا؟هل لديك شك؟

دارت عيني صوبها وأنا أرد:

- لا.. لا أعتقد.. كل شيء يحدث فيها حقيقي وملموس.. له طول وعرض وارتفاع..

قالت وهي تعتدل في وقفتها:

- إذًا فهو حقيقي.. من الصعب جدًا أن يكذب عقلك عليكِ لتلك الدرجة، وأنتِ ترين كل شيءٍ تمرين به حقيقيًا وملموسًا..

هززت رأسي، وقلت وأنا أبتسم ابتسامة خفيفة:

- لكن كل الهلاوس والخيالات تبدو حقيقية، وإلا كيف ننخدع بها؟

ظلت تنظر إليّ وهي ترفع حاجبيها، فأضفت أنا وبسمتي تتسع:

- أعني أن بالتأكيد المجنون لا يدرك أنه مجنون أو يتصرف كالمجنون.. هذا طبيعي، وإلا كيف صار مجنونًا؟

تذكرت هي للحظة، ثم قالت وهي تدفعني في كتفي في رفق:

- أرى أن (رفعت إسماعيل) بدأ في التأثير عليكِ بالفعل..

ضحكت ضحكة قصيرة، وضحكت هي، ثم أردفت:

- عمومًا أتركي لي هذا الموضوع.. لدي فكرة سأعمل على ترجمتها لخطة، وسأخبرك بها فوق أن تكون جاهزة..

- أيُ فكرة؟

غمزت بعينها اليسرى، وقالت بنفس بسمتها الخفيفة:

- ستفهمين كل شيءٍ في وقته..

ثم أحاطت كتفي بذراعها، وهي تجذبني لأتحرك معها، مضيفةً:

- هيا بنا الآن نعود إلى المنزل.. المدرسة خالية تمامًا ولا يوجد غيرنا، وربما قلقوا علينا في البيت..

وتحركت نحو الدرج في سرعة، بينما شردت أنا بنظري في الأفق بضع لحظاتٍ أخرى..

راحة أن تجد أحدًا يصدق جنونك، ولا يعاملك على أساسه، هي راحة لا تقدر بثمن..

لكن يظل هناك السؤال.. أي فكرة تلك التي تتحدث عنها؟..

قلبي يحدثني أنها شيءٌ لن أحبُ خوضه كثيرًا..

- (ندى).. هيا..

نظرت لها وهي تطل برأسها من الدرج، وقلت وأنا أتحرك صوبها:

- حاضر..

***

مر بعض الوقت بعد محادثتنا، حتى جاء اليوم الموعود، ووافقت والدتي على طلبي للمبيت في بيت (إيمان)، بعد إلحاحٍ مني، جعل ذلك هو الحل الوحيد قبل أن تحطم رأسي..

هذا هو مساء يوم الخميس.. غدًا هو إجازة دراسية كما تعرف، لذا لم تجد والدتها حرجًا من أن تتركنا نلهو كما كانت تعتقد أننا سنفعل.. فلتغلقن باب الغرفة، وتسهرن.. ما الذي يمكن أن يحدث؟.. هكذا كانت تظن.. وكانت حمقاء، كعادة الأمهات في كل حكاية رعب، منذ فجر التاريخ!

لذلك فأنت ترانا هنا معًا.. جالستان على سريرها، في غرفتها المغلقة، نحدق إلى بعضنا، ونبتسم..

- حسنًا.. نحن هنا بالفعل.. ما هي فكرتك التي لا تريدين أن تحكيها؟

التقطت (إيمان) نفسًا عميقًا، ثم نهضت من على السرير، لتقطع الغرفة جيئةً وذهابًا، وهي تقول:

- هناك طريقة أعرفها، يمكنها أن تجعلنا قادرين على الكلام مع الشيء الذي يحاول التواصل معكِ من العالم الآخر، أيًا كانت ماهيته.. ولكن حتى أتمكن من شرحها، لابد أولًا أن تفهمين الموضوع من البداية..

نظرت لها في اهتمام، وأنا أتراجع بظهري لأستند إلى الوسادة، ولم أتكلم، وإن أومأت برأسي علامة الإنصات..

- باختصار..عالمنا ليس كما نعرفه، وليس كما نراه.. كل ما هو يقع أمام بصرك، وتقع عليه أنظارك وتظنينه طبيعيًا هو مجرد مسرح.. مسرح عليه ممثلون.. لكن الحقيقة الفعلية تختبيء وراء الكواليس، وخلف هذا المسرح بأكمله..

تطلعت لها وهي تتكلم.. سنها صغير على ما تقوله.. من أين أتت بكل تلك الثقافة التي تصبغ كلامها بنبرة نُضج غير مُعتادة؟

- ما نعيش نحن فيه هو العالم الذي نقدر على رؤيته فقط.. عيوننا لا تقدر سوى على رؤية حياتنا وعالمنا الطبيعي الذي نحيا فيه وبداخله كل يوم.. لكن هناك عالم آخر مختلف.. عالم كبير ومرعب وشديد الغرابة، ولا نفقه نحن عنه شيئًا.. ذلك العالم أقرب مما

تتصورين.. وما يحويه وبداخله لا يقدر أحد على تصوره أبدًا..

جلست على كرسي صغير في ركن غرفتها، بجوار الكومود، وهي تتابع بعد أن أخذت نفسًا عميقًا:

- كل ما تمرين به أنتِ – لو كان حقيقيًا فعلًا، وليس كابوسًا- هو محاولة شيء داخل ذلك العالم الآخر، للتواصل معكِ.. وهذا هو غالبًا ما يتشكل في صورة تلك الكوابيس التي تمرين بها، والإحساس الذي تشعرينه حينما يكون هذا الشيء حولك، ويشغل نفس الحيز التي تقفين فيه..

كلامها منطقي ومرتب.. ولكنني ما زلت لا أفهم.. ثم من أين أتت بكل هذا العلم؟

- تقصدين أن تقولي أن الشيء الذي يحاول التواصل معي ليس من نفس عالمنا ؟

صمتت وهي تنظر لي، ثم أتاني ردها:

- نعم..

- ولماذا يحاول التواصل معي أنا بالذات؟.. هل تعتقدين أنه يمكن أن يكون قد حدث لي شيءٌ ما بعد موضوع الشيخ؟

- غالبًا..

استندت بوجنتي إلى قبضتي المضمومة، وسألتها في اهتمام:

- وكيف عرفتي هذا كله؟

نهضت من مكانها لتجلس بجواري على السرير، وهي تقول:

- أحد أقربائنا يدعي (حاتم) هو من حكى لي هذا كله.. يقول أن أحد أصدقائه يملك كتابًا غريبًا، لا أذكر اسمه بالضبط.. شيءٌ ما له علاقة بالشمس.. الكتاب الشمسي أو الشمس الكبرى أو شيءٌ من هذا القبيل..

وافقتها بهمهمة قصيرة، فتابعت:

- المهم أنه قد حكى لي أنه مر بتجارب عديدة مع صديقه هذا، وقاما بتجربة العديد من الطرق والتحضيرات التي كانت موجودة في الكتاب.. ومعظمها تحقق فعلًا.. وهو الذي أخبرني بتلك الطريقة التي أنا على وشك أن أحكيها لكِ، بعدما وجدها في ذلك الكتاب..

تراجعت في مجلسي، واتخذت مضجعًا وثيرًا وأنا أسألها:

- وما هي الطريقة؟

- دعيني أخبركِ..

- 5 -

تجربة محرمة

أتطلع إليها مليًا، وهي تجذب الدلو الصغير من تحت سريرها..

نظرة مني إلى محتواه أصابتني بالغثيان.. لا أفهم كيف يمكن أن تكون أعصابها قوية وثابتة الجنان إلى هذه الدرجة.. لم أر من قبل طفلة في الثالثة عشر تحتفظ بدلو مليء بدم الدجاج تحت سريرها لو كنت تفهم ما أعنيه.. تلك تجربة جديدة عليّ، وأجسر على أن أقول أنني لم أرها من قبل حتى في أفلام هوليوود السينمائية..

الأطفال دومًا شياطين فضوليين مزعجين في كل القصص على مر التاريخ.. ولا وظيفة لهم إلا أن يُخطَفوا من قِبَل القاتل المتسلسل الشهير الذي يدور عنه الفيلم، أو أن يستعملهم الشيطان أو (العفريت) كما يسمونه، ككرة مضرب أو تنس.. وظائفهم ليست متنوعة كثيرًا كما ترى.. لذا ففكرة الفتاة التي تستعمل دلوًا مليئًا بدماء الدجاج في تحضير كيان شيطاني يطارد صديقتها، كانت جديدة وفريدة من نوعها، لم أستوعبها حتى وأنا أراها تُنفذ أمام عيني..

فرشاة كراسة الرسم الصغيرة التي أخرجتها من داخل حقيبتها المدرسية.. أستاذة (سميرة) مدرسة التربية

الفنية كانت لتموت بنوبة قلبية، لو رأتها وهي تغمس الفرشاة بداخل الدلو حتى تبتل تمامًا، ثم تخرجها والدماء تقطر منها، وتبدأ في الكتابة بها على سطح المرآة الطويلة في منتصف الحائط المقابل لباب الغرفة..

حاولت أن أفهم ما تنقشه على المرآة، فلم أستوعب منه شيئًا، ولكن فضولي الذي لا يهمد دفعني لأن أسألها:

- من أين أتيتِ بهذه الدماء؟!

قالت في هدوء وهي تواصل عملها كأنما هي تؤدي فروضها المنزلية:

- أمي كانت قد ابتاعت دجاجة لتطبخها لنا غدًا، وحينما ذبحتها، قامت بتصفية الدماء في دلوٍ في الحمام.. كل ما فعلته أنا هو أن استعرت بعضًا منه، وخبأته هنا..

ارتفع حاجبيّ في دهشة وأنا أقول:

- أنتِ تحضرين للموضوع منذ فترة كما أرى..

ابتسمت ولم ترد، ولم أرَ أنا ابتسامتها في غمرة عملها على المرآة وهي توليني ظهرها، فسألت سؤالًا آخر:

- وماذا ستفعلين لو دخلت والدتك علينا في خضم كل هذا، ورأتكِ وأنتِ تكتبين بالدمِ على المرآة؟.. وغير هذا، كيف سنقوم بمسح هذا الكلام بعد أن ننتهي؟

لم تلتفت، وقالت في هدوء:

- لن تدخل.. لا تقلقي، وساعديني..

اقتربت منها في بطء وأنا أقول:

- أساعدكِ كيف؟.. أنا لا أفهم ما تفعلينه في الأساس..

قالت وهي تناولني الدلو:

- أمسكي هذا وثبتيه من أجلي؛ حتى ننتهي بسرعة..

فتلقفت الدلو منها واحتضنته بين ذراعيّ، و واصلت هي رسم النقوش والرموز الغريبة على المرآة بسرعة أكبر.. وزنه كان خفيفًا، ولا يحوي الكثير من السائل القاني.. لم تكن الدماء حتى ثقيلة، بل كانت مخففة بالمياه.. هذا طبيعي، فقد سرقتها من دلو آخر مليء بالماء.. ليست هذه تفصيلة مهمة على أيةِ حال..

واصلت (إيمان) العمل لبعض الوقت، بينما جعلت أنا أتلفت حولي مرارًا، وإلى باب الغرفة تكرارًا.. لا أريد أن أتخيل ما ستفعله أمها لو دخلت الغرفة فجأة وسط ما نفعله..

رباه.. لا تجعلها تدخل الغرفة..

زفرت نفسًا حارًا، في نفس اللحظة التي ألقت هي فيها الفرشاة في حاملها البلاستيكي، وتراجعت وهي تنظر إلى اللوحة المرتسمة على المرآة..

نقوش في كل مكانٍ وركن.. نقوش في المنتصف وعلى الأطراف، وعلى أطراف الأطراف، وأطراف

المركز..

نقوش من كل شكلٍ ونوع.. شكلها يبدو كالحروف العربية، ولكنما تدقيقك فيها يوضح أنها ليست حروفًا، بل هي شيءٌ آخر..

شيءٌ لا تدري كنهه، ولكنه يورثك شعورًا خفيًا بعدم الإرتياح.. ربما التوجس..

قلت لها وأنا أضع الدلو كما كان تحت السرير، ثم ألتفت لأقف جوارها متطلعةً إلى المرآة كما تفعل هي:

- والآن ماذا؟

التفتت هي إلى حقيبتها المدرسية مرة أخرى، وقالت وهي تنحني لتتناول شيئًا ما من داخلها:

- أطفئي النور، وتعالي..

لم أكذب خبرًا، واستدرت إلى مفتاح النور لأقلبه إلى وضع الإنغلاق..

غرقت الغرفة في ظلام دامس، لم يقطعه سوى صوت الاحتكاك المميز الذي صحبه وهج عود الثقاب الصغير، الذي امتد إلى فتيل الشمعة التي تحملها (إيمان) في يدها الأخرى..

نفخة قصيرة في عود الثقاب كانت كافية لأن ينطفيء، وتلقي به جانبًا، ثم ترفع عينها إليّ، ويدها ترتفع حاملة الشمعة معها..

- بماذا تشعرين؟

سؤال سهل الإجابة.. لا أحتاج حتى إلى التفكير..

- بالرعب طبعًا.. شكلك على ضوء الشمعة أشبه بالعفاريت التي كانوا يخيفوننا بها ونحن أطفال..

ابتسمت في جذل وهي تحرك الشمعة يمينًا ويسارًا لتلعب بأعصابي، التي طارت شعاعًا، وعيني ترقب الظلال التي تتشكل في كل ركنٍ من الغرفة، دعك طبعًا من منظر المرآة التي تلتمع على وهج النار، وزجاجها

ينقل انعكاس مشهد الغرفة الغارقة في الظلام، والظلال التي ترتع في جوانبها..

ظلال على الحوائط.. ظلال على السقف.. ظلال على الكومود وفوق السرير.. ظلال على النافذة وفوق الستائر التي تتحرك في خفة، كأنما هي تخفي ألف شبح..

ظلال.. ظلال.. أعصابي لا تتحمل، فالحقيقة هي أن قلبي ضعيف، وأعصابي أكثر ضعفًا.. ليست المواقف المرعبة هي نقطة قوتي، وبالتأكيد لن أضعها في سيرتي الذاتية كمهارة شخصية..

- كفي عن هذا.. هذه ليست مزحة..

اتسعت ابتسامتها لتغدو ضحكة قصيرة، ثم قالت:

- اهدأي.. شكلك يبدو كما لو كنتِ على وشك الموت بأزمة قلبية حالًا..

ابتلعت لعابي ولم أرد، فأضافت هي:

- هل تعرفين ما نحن موشكتان على عمله، أم لا؟

هززت رأسي نفيًا في صمت، فأردفت:

- سنبدأ في ترنمة بعض الكلمات المعينة التي لا معنى لها بالعربية.. ولن نتوقف عن قولها مهما طال الوقت.. لا يمكن أن نمل أو نتوقف، حتى يظهر..

قلبي يخفق في انفعال، حتى لتضاهي سرعته ركض أي عداء محترف..

- ما هو ذاك الذي سيظهر؟!

قالت وهي تستدير لتجلس على السرير، وتيمم وجهها شطر المرآة:

- ستعرفين بعد لحظات..

حدقت فيها بلا فهم، والتوجس يطل من نظراتي التي يلتمع فيها وهج الشمعة، حتى ليوشك على أن يملأ

الغرفة بحضوره الثقيل، فلا يدع فيها مجالًا لمتنفس، أو مهرب..

ربتت هي بكفها الصغيرة على السرير بجوار مجلسها، وهي تقول رافعة الشمعة نحوي بكفها الأخرى:

- لماذا تقفين؟.. اجلسي حتى يتسنى لنا البدء..

جلست جوارها والقشعريرة تزحف على ساعدي وظهري، وتملأ جسدي كله برودةً غير ذات مصدر، وإن كانت مبررة كما تعرف.. فقط تطلع إلى جو الغرفة، ومنظر ملامح (إيمان) التي تتوهج على ضوء الشمعة، وملامحي التي يرتسم عليها التوجس سافرًا، والظلال التي تتراقص حولنا في كل جانب، وستفهم المبرر.. ربما ينتقل لك أنت الآخر..

(إيمان) تبدأ في الغمغمة وهي تضغط على يدي بكفها، علامة أن أردد خلفها.. فأردد..

لا أفهم ما تعنيه، ولا معنى الكلام الخارج من شفتيها، ولكنني أردده كما هو.. ليس كلامًا، بل هو أشبه بلعثمة

رجل أخرس، أو طفل لا يعرف الكلام..

أردده بلا كلل، وتردده هي بلا ملل.. ويمر الوقت ويمضي، ولا نتوقف..

دقيقة.. فدقيقتان.. فدقائق..

الشمعة تذوب، وتتساقط في الطبق الصغير الذي تحمله (إيمان)، فتثبتها هي في وسط الشمع الذائب، وهي مازالت تردد الغمغمات بلا كلل، وأردد أنا خلفها وأنا ابتلع لعابي في بطء..

يمر الوقت ويمضي، والظلال تتراقص على الحائط، ومشهد الغرفة المظلمة التي لا يظهر منها سوى وجهينا المضيئين بوهج اللهب الذهبي المتراقص، ونحن نجلس على السرير بلا حراك، ينعكس في المرآة الطويلة، فينقل التوجس إلى محيط المكان، ويملأ القلوب.. حتى (إيمان) نفسها بدأت تهتز مليًا، بحركة غير ملحوظة..

أقول، يمر الوقت ويمضي..

حتى نراه..

***

في البداية لم نتبين شكله بالضبط، ولم نفقه أصلًا أن هناك شيئًا ما يتجسد بسبب الظلام الدامس، وظلال الشمعة التي تثير الخيال، ولكنَّ البرودة الشديدة التي استولت على الغرفة بعدها كانت سببًا لأن ندرك أن شيئًا ما غير طبيعي يحدث.. وحينها كانت عقولنا، والعيون، قد صارت مؤهلة لأن تراه..

تراه وهو يتشكل كالدخان في ركن الغرفة، جوار السرير، أمام الكومود وخلف كتفي بالضبط.. جسده أشبه بالدخان غير واضح المعالم، وحضوره يغلف الغرفة كلها ببرودة كالثلج، يتصاعد معها البخار ليكسو سطح المرآة بطبقة ضبابية بيضاء، باردة كالجليد..

أشهق وأنا أتوقف عن الغمغمة، وعيني تتعلق بالمشهد المتمثل في المرآة، وتوشك صرختي على التحرر، قبل أن تضغط (إيمان) يدي بكفها في قوة، وهي تتوقف

عن الغمغمة بدورها.. فأبتلع لعابي ولساني معه، وأصمت..

أصمت تمامًا، وأنا أتطلع إليها بطرف عيني دون أن أستدير، بينما تهمس هي في خفوت:

- تابعي النظر في المرآة، ولا تتحركي قيد أنملة.. لا حركات مفاجئة..

أوميء برأسي إيجابًا في بطء، وأنا أرتجف بوضوح سافر، ينقل الرعب ذاته إلى جسد (إيمان) الذي بدأ في الإرتجاف بدوره.. ربما كانت ثابتة الجنان، أعصابها أقوى وأشد من أي ضابط مباحث يجيد عملها، إلا أنها في النهاية طفلة.. طفلة لا يتعدي سنها الثالثة عشر.. والأطفال شديدو الخيال، يتصورون شبحًا في كل ركن، ويخافون..

يخافون بشدة..

ابتلعت لعابها ببطءٍ بدون أن تتحرك هي الأخرى، ثم خرج السؤال من بين شفتيها في هدوء، بصوت

مرتجف النبرات، خافت النغمة:

- من أنت؟

تنظر إلى التجسد البادي في المرآة وهو يهتز كما يتصاعد الدخان من الحرائق، وتنتظر ردًا لا يأتي، بينما أرتجف أنا ولا أجسر على النظر في السطح اللامع، وأنظر بطرف عيني إلى ما هو جوار كتفي، محاولةً أن ألمح ما يدور بالخلف..

هل تعرف ذلك الشعور الذي ينتابك وأنت تجلس ليلًا في الحقول وسط الظلام، أمام شعلة الحطب الصغيرة، وظهرك تغمره نسمات الهواء الباردة؟.. شعور العراء هذا الذي يدفعك دفعًا لأن تلتفت وتنظر، لتتأكد من أن وحشًا لا يوشك على قضم رأسك، وأن شبحًا لا يختفي هناك، ويقبع منتظرًا أن تلتفت..

شعور العجز هذا.. أنك عارٍ كطفل رضيع وسط عاصفة، يوشك ألف خطر على أن ينال منك، وأنت لا تقوى على فعل شيء، لأن عينيك لا تملكان القدرة على النظر

في كل الاتجاهات في وقتٍ واحد.. تتمنى لو أنك كنت حرباءًا أو يعسوبًا لتملك القدرة على النظر في محيط 360 درجة كاملة، وترى كل ما هو حولك في نفس اللحظة.. فلربما كنت بهذا قادرًا على النجاة من هذا الذي يراك، وينتظر..

جسدي يرتجف، والعرق البارد يغمر يظهري، ويبلل ملابسي، بينما (إيمان) تسأل من جديد:

- من أنت، وماذا تريد؟

لا رد، وصمتٌ طويل.. طويل لدرجة تضغط الأعصاب، وتجعل الصراخ قريبًا للغاية..

ثم يبدأ صوت الهدير..

نفس الصوت الذي كنت أسمعه من قبل في أحلامي، وخلال مقابلتي مع ذلك الكائن أثناء عملية التحضير التي قام بها الشيخ في بيتنا.. نفس الصوت الذي سمعته حينما زارني ذلك الكائن في غرفتي، وألقى في نفسي هلعًا لا يجدي معه أي تعقل..

نفس الصوت، ونفس الهلع يستولي على قلبي من جديد، ولا يمنع صراخي سوى كف (إيمان) المحيط بيدي، كما سدادة البالون.. فلو ابتعد كفها عني، لأفرغت فزعي في صراخي كفراغ الهواء من البالون..

الهدير يستمر ويتعالى نسبيًا.. صوته يبدو كصوت الثلاجة لو كنت تعرفه، ولكنه غير مزعج.. لا يسبب الصداع لو كان هذا ما تفكر فيه..

ثم تخرج الكلمات أخيرًا.. عميقة، ذات نبرات غير بشرية لم أسمع مثلها من قبل في حياتي، وتتجسد في الغرفة بأكملها كأنما هي تأتي من الحوائط ذاتها، وتنعكس عنها في كل ركن..

- منكم أنا.. منكم وإليكم أعود..

لم نفهم الإجابة للوهلة الأولى، ولم نستوعب معناها، مما دفع (إيمان) لأن تسأل بلا شعور، والرعب يستولى على جسدها، ويجري في عروقها تحت تأثير الصوت العميق المجسم:

- ماذا؟! ماذا تقصد؟!

فتأتي الكلمات مرة أخرى، بنبرة أعلى هذه المرة:

- منكم أنا وإليكم أعود..

قلبي يوشك على التوقف ذعرًا، وساقي الأيمن يبدأ في الاهتزاز فعليًا، وأنا لا أقدر على التحكم في مثانتي، وأظافر (إيمان) تنغرس في ساعدي كالمخالب، بينما الصوت يردد بلا كلل:

- منكم أنا وإليكم أعود.. منكم أنا وإليكم أعود..

دمعة رعب تتحرر من مقلتي بدون أن أشعر، وتجري على وجنتي حتى تلتقي بأسناني التي تعض على شفتيَّ بقوة حتى لا أصرخ، و(إيمان) ترتجف بقوة وهي تحاول أن تقاطع الصوت الذي مازال يتردد بلا توقف، بسؤالٍ مستفسرٍ آخر، قبل أن تتغير النبرة المترددة فجأة، ويصير الصوت أجشًا لدرجة لا تصدق، وهو يمط حرف الواو بطريقة تجعل العبارة بأكملها أشبه بصراخ الشيطان نفسه..

- منكم أنا وإليكم أعوووووود..

الصوت يعلو حتى يصير أشبه بالصراخ، والهواء البارد يغمر أجسادنا ويطير الملاءة، ويحرك الستائر، بدون أي مصدر يمكن أن يأتي منه.. النافذة مغلقة، والباب موصد، ولا نوافذ أخرى في المكان.. لا توجد حتى شرفة..

ثم يتحرك التجسد من مكانه..

يتحرك في بطء متجهًا نحو كتفي، ويتحرك انعكاسه في المرآة التي كستها طبقة البخار الضبابية، حتى صار تمييز ما يدور فيها صعبًا..

يتحرك حتى يصير جسده الدخاني جوار كتفي مباشرة، وتلفحني أنفاسه الباردة كالثلج.. كالجليد.. كأصقاع لم تسمع عنها، ولم ترها من قبل.. كصقيع كوكب بعيد، في فضاءٍ مظلم لا يمكنك أن تصفه..

لم أقدر على كبح صرخاتي أكثر من هذا، فتحررت لتخرج كصافرة الإنذار، تصم الآذان ولا تتوقف..

وحينها فقط، انفتحت بوابة الجحيم في محيط الغرفة..

الوسائد تطير من مكانها.. الملاءة تتكوم بأكملها على جانب السرير.. الستار يتطاير كأنما هو شراع سفينة وسط عاصفة..

البرد.. البرد القارص الذي يوشك على أن يجمدك في مكانك.. والصوت الأجش الذي يصرخ، ويمتزج بصوت صرختي التي تدوي وترتج لها الغرفة، وأنا أنهض من مكاني على السرير لأتعثر وأسقط على الأرض، بينما (إيمان) ترصد بعينيها طيران خيال الكائن نحوي في سرعة، وانعكاسه يقترب من موضع الناظر في المرآة، حتى بدا كأنما هو يغوص فيها من الداخل، ويتحرر إلى محيط الغرفة، ليكتسب تشكلًا ماديًا حقيقيًا..

يكتسب تشكلًا ماديًا حقيقيًا، ويقف بأقدامه العملاقة أمامي بالضبط، وجسده الطويل يحمل رأسه إلى ارتفاع لا يستوعب، حتى يخترق رأسه أو ما يحتل مكان رأسه الحائط ذاته..

وأصرخ..

أصرخ كما لم أسمع من قبل في حياتي، ولن أسمع..

أصرخ كما لم أجرب من قبل، ولن أجرب.. أصرخ كأنما هم يحرقونني حيةً، و(إيمان) تصرخ معي مع مشهد مصباح الغرفة الذي يتذبذب الضوء في داخله بلا كهرباء، ويصدر عنه الصوت الإستاتيكي المتميز، في نفس اللحظة التي تنطفيء معها الشمعة مع تيارات الهواء البارد.. ويصم صراخنا الآذان..

ثم تقتحم أم (إيمان) الغرفة، ويختفي الكائن تمامًا من أمامي، وهي تهرع نحو ابنتها لتحتضنها وهي تبسمل وتحوقل، وتسأل في صوتٍ أشبه بالصراخ:

- ماذا هناك؟! ماذا حدث؟!

لا ترد (إيمان) وهي تكف عن الصراخ ودموعها تتساقط على وجنتيها، ولا أتوقف أنا عن الصراخ، بينما رائحة البول المتسرب من مثانتي التي لم أستطع السيطرة عليها وكبحها، يتصاعد ليفعم الأنوف..

مصباح الغرفة يكف عن التذبذب، ويتراجع البرد في بطء، بينما أم (إيمان) تنحني لتلتقطني من موضعي في الأرض، وتحتضنني قائلة:

- ما الذي حدث لكم؟!

ثم تلمح بطرف عينيها على الضوء الآتِ من الصالة عبر باب الغرفة المفتوح، مشهد النقوش المرسومة بالدماء على المرآة، فتتحول نبرة صوتها لتعكس التوجس، وهي تسأل:

- ماذا كنتم تفعلون؟!

ولا تجيبها إحدانا..

فقط أحدق بطرف عيني من فوق كتفها الذي يحتضنني، في نافذة الغرفة التي طار الستار من فوقها، وتجمع كله إلى الجانب ليكشفها بالكامل..

أحدق في البخار الأبيض الرائق الذي يغطيها ببرودة قارصة، وهو يزول رويدًا بتشكل معين، كأنما هو يرسم

حركة إصبع خفي يرسم عليه كلمةً ما..

كلمة تُكتَب وتتشكل حروفها أمامي بلا يدٍ ترسمها، وببطءٍ تتحول إلى جملة ترتسم عبر الضباب المتجمع، وتتضح..

- منكم أنا.. وإليكم أعود..

***